الفصل الثاني

فانتين

وُلِـدَتْ تلك البائسةُ في قرية «موانتراي سيرمير» ولا تعرف لها أمًّا ولا أبًا، ولا من يمت إليها بحبل القرابة، ولا يعرف الناس من أمرها أكثر من ذلك، فوردت سجلّ العناء، وأنظرتها الخطوبُ حتى بلغت سن الطفل الدارج، وإنها لتدرجُ ذات يوم في الطريق وهي تنتعل أديمَ الأرض[1] إذ مرَّ بها بعض السابلة[2]، وسماها «بفانتين»، ومن ثَمَّ أصبحتْ تُدْعَى بذلك الاسم الذي أصابها كما كانَ يصيبُ ذلك المطر المنهملُ جبينها.

ولما بلغت العاشرة من عمرها، ولا أدري كيف بلغتَها، خرجتْ تطلبُ وجوهَ الرزق، وتلتمسُ أسباب القوت في ضواحي تلك القرية.

فما زالتْ تكدحُ في طلب العيش حتى يفعت أو كادت تفع، فعافت[3] نفسها البقاء على تلك الحال، وساقها قائدُ الاضطرار إلى الانزعاج عن الوطن، فشخَصَتْ إلى «باريس» وألقت نفسها في معترك تلك الحياة الجديدة فمازالت تعمل لبطنها، وهي تطرقُ أبواب الارتزاق حتى ظمأ فؤادها إلى نهلة من موارد الغرَام.

وكانتْ على جمال قد تولت عفةُ النفس حراسته، وقد غنيت ببهجتها على بهجة الحلى، وأمرها الحسنُ بما لم تمهر به أترابها، أمهرها بالنفيسين، بالعسجد[4] في شعرها، واللؤلؤ في ثغرها.

فمازالتْ تطوفُ على تلك الموارد ورائدها الفؤاد حتى وقف بها على منهل قد رقَّ ماؤه، فإذا بها ترى فيه وجه ذلك الإنسان الذي غلبها على قلبها فأرضعها أفاويقَ الآمال وأرشفَها رضاب[5] الأمانيِّ حتى أخذتْ عفّتها تتسلل قطرة قطرة، وحتى جلس منها ذلك الخبيث مجلس الرجل مِنْ أهله.

وكانت في مبدأ أمرها- حيث كان الغرامُ طفلًا والعفافُ فتيًّا- تغالبُ كيد ذلك الهوى ويغالبها وتجهد جهدها في الميْل عن ذلك الساحر، ولكنها ما كانت تميل عنه أصبعًا إلا لتميل إليه ميلًا.

---

(1) بلا حذاء. (2) عابر سبيل. (3) عافت: رفضت.
(4) العسجد: الذهب، فشعرها لونه لون الذهب. (5) مَنَّاها كذبًا بالأمل.

كذلك كانت حالها، حتى أصبح الحبُّ، وقد غلبها على أمرها، وسقطت بين ذراعي ذلك الأثيم فافترشها ما شاء.

ثم زال عنها زوال السكينة عن فؤاد العذراء إذا لم تحصنْ فرجها، وغادرها وهي جفن سلاح[1]. وكان لها صواحبُ ثلاث، ولذلك الغادر أصحابٌ ثلاثة، وقد جمع اللهو بين هذين الفريقين، وضرب عليهما بالقداح، فخرجت لكل واحد من فريق الرجال واحدة من فريق النساء. وكانَ الرجالُ من بلاد مختلفة وقدْ هبطوا «باريس» في أيام العطلة السَّنوية. وما كادَ ينصرمُ أجلُ تلك العطلة حتىً انصرم حبل الوداد، واختفَى أولئكَ الأربعة في يوم واحد!

وانفرطَ على أثر اختفائهم عقد التئام الفريق الثاني، فبقيت «فانتين» وحدها بلا أنيس غير ذلك الجنين الذي كانت تحمله في أحشائها، فانقطعت عن الناس، وانزوتْ في بيت الأحزان، وجعلت تُعاني من ألم الفراق ما تعاني.

وزكَا[2] حبُّ ذلك الغائب في فؤادها، فخرجت ذات يوم تستكتبُ الناسَ له كتابًا تدعوه إليْها، وأبطأ خبره عنها، فشفعت كتابها بثانٍ، وعزَّزَته بثالث.

وما زالتْ تستكتبُ الناسَ، وترتقبُ الجواب حتى احتواها اليأسُ وبلغَ منها القنوط، فأقبلتْ على نفسها تلومها وباتت تحزُّ الودج[3] أسفًا على حالها، وضعتْ حملها فإذا هي طفلة فسمتها «بكوزيت».

وأقامتْ ما شاء الله حتى نزلتْ بها الضائقةُ، وحضرها العوز، ونضبت موارد الرزق. وكانتْ لها فَضْلَةٌ مما كانت تتجملُ به في أيام لهوها، فما زالت تنفق منها، وتأكلُ مما كانت تصيبهُ من ثمنها حتى أمستْ وليسَ في يدها ما تستعينُ به على سدِّ حاجتها.

وقد زهدتها أيامُ قرب الحبيب في مزاولة العمل الذي كنت تصيبُ من ورائه الرزق لتوافر أسباب العيش وعدم الحاجة إلى العمل، ففترَ ذلك النشاط الذي ولَّدته فيها الضرورة، ووهي العزم ووقم الحزم[4].

وأصبحت ترَى الأرض في ناظرهَا وهي أضيق من كفة الحابل، فعزمتْ على التجولِ من باريس والعودة إلى مسقط رأسها.

وقالت: لعلّي أجد هناك ما أصون به أديم هذا الوجه من الإخْلَاقِ، واستعينُ به على تربية هذه اليتيمة.

---

(1) حبلى.
(2) نما وازداد.
(3) الودج: الوريد، ومن المجاز قولهم حزَّ على الفائت الودج إذا اشتد تلهفه.
(4) وقم الحزم: وقف وضعف.

ولما صحَّتْ عزيمتها على ذلك جمعت إليها ما بقي من حَاجِها، وباعت بَعْضَهُ فوفتْ مطالب الغرمَاء، وحفظت بعضَ الدراهم.

ثم احتملتْ طفلتَها وخرجت تمشي على استحياء وهي كاسفة البال سيئة الحال وليس وراء ما بها من الهمّ غاية.

وتنكرَ لها كل شيء فودت بجدع الأنف لو أن ظهر الأرض من الأنس أعرى من سراة الأديم. فسارت، ولو رآها أقربَ الناس عهدًا بها لغابت عنه معرفتها لفرط ما نزل بها من الهزال، واخترم جسمها من السقم، وإن كانت لا تزال عليها مَسْحَةٌ مِنْ ذلك الجمال الغابر.

وأخذتْ طريقها إلى بلدتها وجعلتْ كلما أخذ منها التَّعَبُ تنتحي ناحيةً من الطريق وتجلسُ ريثما تنفس عنها كرب المسير وتغذو طفلتها.

ونزلَ بصدرها نازلٌ من السعال دعته الرضاعة إلى النزول بذلك الصدر الضعيف فضاعف من وَصَبَها[1] وزاد في ألمها.

وما زالتْ ترامي بها المرامي حتى وقفَ بها السير على نزُلٍ حقير بقرية «منتفرتي» كان قائمًا على رأس الطريق، يدعى بطريق الخبازين، أسسَ في صَدْرِ القرن الرابع عشر وزالتْ معالمه.

وكان هذا النُزُل لذئب من ذئاب الإنْس يُدْعَى «تيناردييه»، وكانت تحته ذئبة من أحدّ الذئاب وأضرها تدعى باسمه، وهما يقطنان مع أولادهما في ذلك النزل.

ولعل ذلك الذئب كان ممن شهدوا موقعة «واترلو»، فقد يرى الناظر بأعلى ذلك الباب لوحًا كبيرًا قد نُقشَت عليه هذه الكلمات: «هَلُمُّوا[2] إلى جُندي واترلو».

ورُسمت بأسفل اللوح صورةُ رجل يحمل على ظهره رجلًا آخر عليه شارة القواد تلمع على كتفيه النجوم ويشرق في أثوابه الدم. وهما تحت جو أشبه الأشياء بجو الملاحم عقد الدخان فوقه سماء مكفهرة الأرجاء.

وقد طُرِحَت أمامَ ذلك الباب عجلة عاتية من تلك العجلات التي كانت تُسْتَخْدَمُ في ذلك العهد لحمل الأثقال وجلب الأشجار من الغابات.

وكأنها لم تُطْرَحَ في ذلك المكان إلَّا لتصدأ أو لتزحم الطريق أو لتجعلها تلك الذئبة الضارية أرجوحة لوليدتيها.

وقد سترَ الوحل أخشابَ تلك العجلة، وكسا الصدأُ حَديدَها، فأقامتْ في تلك الطريق وهي كأنها بعض أولئك الرؤساء الدينيين الذين قاموا عثرة في سبيل الشرائع الغابرة[3].

واتفقَ أنْ وقفتْ «فانتين» على ذلك النُّزُل حين كانت تلك الذئبة تلاعب طفلتيها، وقد وضعتهما في الأرجوجة، وهما كأنهما قمران في طفاوة أو زهرتان في كمام.

وكانتا متعانقتين في هزة ذلك المهاد، وصغراهما بين ذراعي كبراهما، وقد سلخت الكبرى منهما ثلاثين شهرًا، وأوشكت الصغرى أن تهل العشرين.

وجلست أمهما على كثب منهما تشَارفُهُمَا وتتغنى بشيء من الكلام المقفَّى.

وأنها لتشدو كذلك، إذ وقفت «فانتين» على رأسها وقالت: لعلك أم هاتين الزهرتين.

---

(1) الوصب، الوجع الشديد. (2) هلموا، بمعنى تعالوا. (3) الغابرة، الماضية.

فلم تحر جوابًا ولم تلتفت، ولعلها لم تسمع صوت تلك السائلة، فقد استطرد بها جواد الطرب في ميدان الغناء. فعاودت «فانتين» السؤال بصوت كان خليقًا بالوصول إلى مسمع تلك المندفعة في غنائها.

فالتفتتْ إليها فإذا هي ترَى فتاة قد أنْصبَ[1] بدنها السير، وكدَّها الهمُّ والضير، ونال منها البؤس، وبلغ منها الشقاء.

وقد كادَ يمسحُ الحزن ما كان على وجهها من مسحة ذلك الجمال، وأوشك أن يذهب البكاء بما كان كامنًا في محاجرها من ذلك السحر الحلال!

فانتقلتْ حمرة وجنتها[2] إلى عينيها، وهاجر سواد لحظها إلى حظها وامتد اصفرار شعرها إلى لونها، ودبَّ سقم جفنها إلى صدرها، وسَرَى نُحُولُ خصرها إلى جسمها، والتقى في مآقيها دمع الحزن بدمع الدلال، واجتمع في قَدِّها ذلك الهيف وذاك الهزال.

وقد أدْمَى إدمانُ وخز الإبر سبابتها أيام كانتْ تخيط لتعيش، وذهب الفقر بزينتها فليس عليها من الثياب غير ما يحصنها من البرد ويقيها الحر!

تلك «فانتين» التي تقف على جمالها العيون، ولو أن تبتسم اليوم لرأى الناظر ذلك اللؤلؤ المنظوم في ثغرها، ولكن الحزنَ والشقاء لم يدع للابتسام سبيلًا إلى ذلك الثغر الذي كان منطبقًا على ثناياه انطباق المحارة على الجوهرة.

وكانت تحملُ على ظهرها تلك الحقيبة التي أودعتها كل ما تملك، وتحملُ بين ذراعيها طفلة ساجية الطرف، عبلة الساق، وضاءة الجبين، لها من صدر أمها مهاد، ومن ذراعها وساد، أخذ الكرى بمعاقد أجفانها فنامت نومًا هنيئًا بين ذراعين قد صيغَتا من الشفقة، وصدر قد صُوِّرَ من الحنان.

فقالت لها ربة النُّزُل وقد رفقت في القول: نعمْ هُمَا ريحانتاي، ثم دعتها إلى الجلوس بجانبها على عتبة الدار وأنشأت تحدثها على نفسها وعن بعلها، وجعلتْ تحاسنها في القول وتلينُ لَها في الكلام؛ ولم يكن ذلك اللِّين من شأنها، ولا تلك الرقَّة من طباعها، ولكن ربما وجدت الرحمة مَسْرَبَةً[3] إلى تلك الأفئدة الغليظة عند ذكر صغارها.

وكانت تلك المرأة شقراء اللون، جهمة الوجه، وهي فوق الطويلة ودون البادنة، يزدهيها شيء من الخلاعة، ويشوب لسانها نوع من التزويق شأن أرباب الفنادق، ولا أحسبها في ذلك العهد إلا وقد جاوزت حد الثلاثين.

---

(1) أنْصَبَ: أتعبَ. (2) الوجنة: الخَد. (3) مسربة: سِرْبًا وطريقًا.

ولو أنها انتصبتْ قائمة لرَاع «فانتين» طولَ قامتها، ولذهب بارتياحها وسكونها إلى محادثتها، ولا بدع فإنها لم تكن إلا حرث جندي، وفراش وحشي.

ولما فرغتْ من حديثها أخذت فانتين تنفض إليها جملةَ حالها، غير أنها كتمتها أمرها، وألقت في روعها أنها أرمل قد مات عنها بَعْلُها، وأن الحرفةَ التي كانت تزاولها قد كَسَدَتْ سوقها في باريس فغادرتها، وخرجت تضرب في الأرض رجاء أن تصيب رزقًا لها ولطفلتها؛ وأنها قضتْ عامة يومها وهي تعاني تعبَ السير على قدميها، وأنَّ ابنتها قد أخذتْ من ذلك التعب بقسمها.

وما كادتْ تأتي على ذلك الحديث حتى انحنت على طفلتها تقبلها وتضمها إليها، فانتبهتْ الطفلةُ لحرارة تلك القبل، وجعلت تدور في هذا الفضاء بعينين قد جال في إنسانيهما[1] الوقار، وكمنت فيهما السكينة، وقد نمّ نظرها عن سر تلك الفطرة السليمة التي لم يكن مثلها بجانب ما ندعوه فينا بالفضيلة إلا كمثل السماء صفا أديمها بجانب الشفق شابته الشوائب، وما يدريك لعلها كان يقوم بنفسها في هذه الفترة أنها ملك من الملائك يطل من سماء عصمته على أعمال هذا الوَرَى.

وما هي إلا جَوْلَةُ فكر حتى تغيرت حالها، وجعلت تبتسم ابتسام الظافر، وهمت بالانزلاق من حِجْر أمِّها مدفوعة بتلك الإرادة التي لا يقف في سبيلها شيء عند أولئك الأطفال، وقد حاولَتْ أمها أن تحبسها عن مَقْصِدها فما استطاعتْ له ردًا.

ولما صارتْ على الأرض أخذت تدبُّ حتى انتهت حيث الأرجوحة والوليدتان، فوقفت تنظر وكأنها تعجب مما ترى، وقامت الأم إلى بيتها فأنزلتهما إلى الأرض، وقالت لثلاثتهن: هيا العَبْنَ جميعًا. وربطت السنُّ بينهن عُرَى الائتلاف، فطفقْنَ يمرحن ويلعبن، وينكتن في الأرض نكتًا.

وكانت تلكَ القادمةُ الجديدة أكثرهن مهارة وأبرعهن يدًا في حفر تلك النكت.

وجلستْ ربةُ المنزل إلى «فانتينَ» تحادثها وتحاسنها، ومازالت بها حتى خلبتها وأنست منها الارتياح إلى سماع حديثها، فأقبلت عليه بوجهها وجعلت تسائلها عن بنتها وهي تخبرها خبرها.

وبينا تتحادث الأمَّان في ناحية، وتلعب الصِّغَارُ في ناحية أخرى إذْ برزت إحدى بنات الأرض من خِدْرِهَا، وخرجت تسعى من بعض تلك النكت، فراعَ الصغار منظر تلك الحشرة، وجزِعن لرؤيتها جزعًا شديدًا، وأشفقن منها وقد ضمهن الخوف إلى بعضهن فتقاربن حتى التصقت جباههن، واستولى عليهن الدهش جميعًا.

---

(1) إنسان العين: جفنها وحدقتها.

وحانت من ربة النزل التفاتة فلمحتهنَّ على تلك الحال وقد تجمَّعن، فظنت ذلك لداعية الانعطاف والميل فقالت لفانتين وهي تحدثها: ألا تَنظرين إلى هؤلاءَ الأخوات الثلاث؟ فوصلتْ تلك الكلمة إلى فؤاد «فانتين» قبل سمعها، فأمسكت بذراع صاحبتها وقالت لها: لقد كنت تلمينَ بما كان يقوم بنفسي منذ رأيتك؛ فإني قد عولت على مغادرة ابنتي بهذا النَزل أفلا تكفلينها؟

فخرجت ربة النزل بالصمت عن لا ونعم، وأشارت برأسها إشارة تشعر بالتردد بين الرفض والقبول!

فقالت فانتين: ولا أحسبك إلا ستعجبين من أمري، ولكن الحاجة تدعوني إلى ذلك، فقد استحال عليَّ أن أجمع بين السعي وراء العمل وبين اصطحاب تلك الطفلة، فأنا غادية إلى التماس بعض وجوه الرزق، وتاركة «كوزيت» بين ذراعي أمها الجديدة، وباعثة لك في كل شهر بما يقومُ بنفقتها، وآخذة على نفسي القيام بدفع اثني عشر درهمًا في كل شهر لكفالتها فانظري ماذا تأمرين؟

وما هي إلا أن انتهت من ذلك الحديث حتى سمعتْ في صحن تلك الدار صوتًا شبيهًا بصوت انفجار البارود وقائلًا يقول لها: أولى لكِ أيتها القادمة أن تدفعيَ أربعةَ عشر درهمًا، وقد استحال غير ذلك.

فقالت فانتين: كذا فليكن، ثم نظرت إلى صاحبتها نظرة المستخبر عن صاحب ذلك الصوت، فألمت تلك الذئبة بمقصدها فقالت: إنه صوتُ زوجي، وهو ربُّ النُّزُل وصاحبُ الأمر والنهي فيه، فلا تجعلي له سبيلًا إلى رفض ما تطلبين مهما اشتَطَّ في الطلب وكلفك ذلك من المؤونة.

وقالَ الذي هي في داره لن تقبلَ الكفالة أو تعجلي بدفع نفقة ستة أهلَّة، وتتركي عندها من الثياب ما يدفع عنها البرد والحر، ثم لبثَ غير بعيدٍ وخرج إليها باسطا يده، فنقدته الدراهم وقضت عندهم سوادَ الليل!!

ولما كان الفجرُ قامت «فانتين» فودعتْ طفلتها، وخلفت تلكَ الحمامة في وَكْرِ الصقور، وصارت ومدامعها تسابق خطواتها!

وما كادتْ تغادرُ ذلك النزل حتى غادرتهُ الرحمة على أثرها، وأصبحت «كوزيت» بين زوجين لو قُسِّم ما في فؤاديهما من الغلظة على أفئدة البشر لما وجدت الرحمة إلى القلوب سبيلًا!

وقالت المرأة لزوجها: مالنا ولتلك القنبرة «وكذلك كانوا يدعونها» نَغْذُوهَا ولا تعمل وإني لأرى لديها من الثياب ما يقومُ ثمنه بوفاء بعضِ ما أقلَّ كواهلنا من الديون فإنْ رأيت أن تجمع تلك الثياب ونبيعها؟!

فقال الرجلُ: ومن الرأيِّ أن تعجلي ببيعها اليوم فإنَّ غدًا توعد المقاضاةُ وليس في أيدينا ما يسد مطالب الغُرَمَاء!

وطلعتْ شمسُ الغد على تلك اليتيمة بالبؤس والشقاء، فلبستْ ثيابَ الذلِّ، وطرحت رداءَ الدل[1]، وكانتَ كلما شبَّتْ يومًا شبَّ معها البؤس عامًا، حتى أصبح الثَّرَى مهادها، والمدرُ وسادها، وتبدلت من حُضْن أمها حضنَ الترابُ، ومن لين ذراعها خشونة الجماد؛ أين عيْنُ «فانتين» ترى ذلك الطمرُ الذي تضل الإبر سبيلها في شقوقه، وينتهي العدّ دون خروقه، تضحى[2] فيه وتخصر[3]، وتنطوي تحت وتنشر، تبكر بكور الغراب إلى كَنْس الدار والفناء، وتنطلق والصبح والليل خيطان إلى حمل الماء، تنطلق إلى النهر والنهر بعيد، وتستقبل القرَّ والقرُّ شديد، وتقطعُ الطريقَ وهي طويلة، وتحمل الجرَّة وهي ثقيلة؟!

أين عين فانتين ترى تلك اليتيمة، وهي تحت الخوان[4] تؤاكل الجرو[5] والهرة، وتلتقف الكسرة بعد الكسرة، وطعامها دون الهر وفوق الكلب «والهر ينتقي ما طاب،والكلب يلتهم كل ما أصاب»!

ولم تزلْ تلك القنبرة رهينةَ الألم والعذاب، يعدون أنفاسها، فإذا تنفست قالوا لها لقد أفسدت علينا الهواءَ، ويرقبون حركاتها وإذا تحركت قالوا لها لقد كَدَّرْت علينا صفو السكونِ؛ حتى ضَؤُلَ جِسْمُهَا واضمَحَّلَ رَسْمُها.

ولؤمَ صاحب النُّزل واشْتَطَّ في طلب النفقة من أمها، فما زال يطلب المزيد حتى كلفها ذلك فوق الطاقة، ووراء الفاقة، فكانتْ تعمل عامة اليوم، وتجعل ما تصيبه من الأجر لتلك النفقة الفادحة!!

وكأن الخبيثَ قد ألمَّ بباطن الأمر، فقال لامرأته ذات يوم: إني لأعلم من أمر «فانتين» مالا تعلمين، إن هي إلا بغيّ قد غلبت على أمرها.

وما جاءتها تلك الطفلةُ إلا من طريق السفاح، ولا أرى شيئًا هو أصلح لحالنا من انتهاز هذه النهزة والتماس الزيادة في النفقة لعلنا أن نصيب من وراء ذلك ما نوفي به الديون، وإنّي ليعرض لي أن «فانتين» لا ترى بُدًا من الإجابة رجاء أن يختفي أمرها، ولا أحسبها إلا ستخضع خضوع المضطرب.

وسقطتْ الكتبُ[6] على «فانتين» سقوط القضاء، وكلها في طلب الزيادة في النفقة ووصف ذلك النعيم التي ترتع فيه طفلتها، وكانوا كلما أفرطوا عليها في العذاب بعثوا لأمها بما يسكن من نفسها، حتى أرسلت لهم قُوتَها وكل ما تصل يدها إليه، فصلحَ

---

(1) الدل: الدلال والعزة. (2) يصيبها حر الضحى. (3) يصيبها البرد.
(4) الخوان: مائدة الطعام. (5) الجرو: الكلب الصغير. (6) الكتب: الرسائل.

شأن النزل، ووفوا الديون، وأصبحوا ببركة وجُود «كوزيت» وكدْح تلك الأرمل وهم في سعة من الحال وبشاشة من العيش!!

وما كان خبث نفسها وحده كافلًا للسعادة فإنَّ النُّزُلَ قبل حلول «كوزيت» لم يكن شيئًا مذكورًا، فحلت بحلولها البركة، وبسم[1] لهم ثغر الزمان.

ولبثتْ عندهم «كوزيت» ثلاثَ سنين تعاني من ألمَ الشقاء ما تعاني، وهم يمرحونَ من وراء عذابها في بحبوحة النعيم. ولو قدمتْ «فانتين» بعد مرور تلك السنوات لتفقد حال طفلتها لأنكرت رؤيتَها، ولغابتْ عنها معرفتها لفرط ما نزلَ بها من البؤس وما نابها من الشقاء!! وكانُوا يتحدثونَ في تلك القرية بأمرها فيقُولون: إنَّ أصحابَ النزل على ما هم فيه من الكفاف وخشونة العيش يغذُون طفلةً لقيطة ويربونها احتسابًا، فنعم العمل ونعمَ الأجر والثواب!

وبعد أن غادرتْ «فانتين» طفلتَها بذلك النزل كما قدمنا ركبت طريقَ قريتها التي ولدت فيها، حتى إذا أشرفت عليها بعد الجهد والعناء؛ نظرتْ فإذا القرية على غير ما تعهد، تسيلُ بها أوديةُ الرخاء، ويبسم لها ثغر السعادة. وقد قامتْ فيها المصانعُ وشيدت دورُ التجارة، وأصبحتْ حركة الأشغال لدوام اتصالها وسرعة انتقالها وهي أشبه شيء بحركة الأرض. وكانتْ قد هجرتْها منذ اثنتي عشرة سنة، ولما عادتْ وأبصرتْ ما هي فيه من رخاء العيش وبشاشة الحال قالت في نفسها: لقد كانتْ سعادة هذا البلد بمقدار شقائي. فإني ما كنتُ أهبط دركًا في مهاوي الشقاء حتى كان يعلو درجة في مراقي الهناء. ولقد صَدَقَتْ «فانتين» في حديثها لنفسها، فإنَّ هذا البلد قد أدَرَّ اللَّه لأهله أخلافَ الرزق، ودخلتْ فيه السعادةُ بدخول رجل هبطه عند انطواء، أجل سنة 1815 تحت جنج من الدُّجَى فكتم الليل أمره.

وشبَّتْ نار في إحدى الدور عند قدوم ذلك الغريب، فهب الناس لإطفائها.

فاندسَّ الرجلُ في غمارهم وغامرَ بنفسه في النار وكان أول المتوثبين عليها، حتى استل من فمها طفلين أوشكا أن يبيتا رزقًا لها، وكانا لكبير الشرطة، فأكبروا فعله، وملأوا أذنيه حمدًا وثناء، ولم يسألوه عن إجازة المرور، ولم تمر بهم خلجات من الشك في أمره وإن كان غريبًا.

«وبقي مادلين[2]» وكذلك سمي نفسه في تلكَ القرية واتخذها وطنًا له، ولا يعلمُ أهلُها من أمره غير ما كان يلوحُ على محياه من سيما الخَير والصلاح.

وكانَ قد وقف على أبواب الخمسينَ من عمره، وأصبح كثير الإطراق، كلفًا بالعُزْلَة.

---

(1) بسَم، تبسَّمَ.

(2) ومادلين هو جان فالجان بطل الرواية.

ولم يكن يملك يوم هبط القرية غير دراهم معدودة، فدخل في مصنع للتجارة كان قائمًا هناك وأحسبه دخل فيه أجيرًا. فأقبلتْ دنياه- وناهيكَ بها إذا أقبلت- حتى أصبحت فضته ذهبًا، وأمسى تراب عمله تبرًا!

ولم تكن إلَّا دَوْرَةٌ من دورات الفلك، حتى أصبح ربًّا[1] لذلك المصنع، فأثرى الرجل إثراء يكاد يدفعه العقل لو لم يقع تحت العيان، فأقام للأجراء دارًا، وشادَ للأجيرات أخرى، وأجرى عليهما الأرزاق.

وفرشَ الحجرات بفاخر الأثاث، وكان لا يدخل في عمله غير الصالح من الرجال والصالحة من النساء.

فاستقامتْ له الأمورُ وتقلبت به أحوال جميلة حتى أصبح ذا وَفْر كَبير!

فكانُوا يقدرون ما أودعَ خزائن المصارف بخمسة وعشرين ألف قطعة ذهبية.

وما آلتْ إليه تلكَ الوفرة حتى أنفقَ مثليها في صالح الأعمال ومؤاساة البائسين.

وشادَ في القرية مدرسةً للذكور وأخرى للإناث، وأجرى عليهما الرواتب، ووسع في نطاق دار المرضى، وكان لا ينهر سائلًا ولا يَرُدُّ عاملًا.

فاختفَى من تلك القرية أثر الشقاء، فكنتَ إذا غَشيتَ دارًا رأيت ربَّها في هناء، وإذا طرقت حانوتًا وجدت صاحبها في رخاء، كل ذلك كان بفضل الانكماش في الأعمال وبركة الكسب من الحلال. وما بلغَ «مادلين» ذلك المبلغ الذي ترى إلَّا بطرح الأثرة ومصارعة الجشع.

ولقد بلغَ من حبِّ الخير أن أقام للعجزةَ ملجأ، وللمعدمين الذين أمسوا من سقط المتاع «ولا عهد لبلاد الفرنسيس قبل ذلك اليوم بمثله».

وجعلَ في مصنعه خزينةً لمساعدة عُمَّاله الذين أقعدهم الكبر وقطعتهم العاهة.

ولم يزلْ نجمه في سعود، وهمته في صعود، حتى نَبَه ذِكْرُهُ، وعمّ خيره، ونمى خبره إلى بيت الملك. فارتاحَ الملِكُ إلى سماع ما أنهوه إليه منَ أمره ورأى أنْ يجْعل لهُ ثوابًا على ذلك العمل المبرور، فأمر بإقامته شيخًا على ذلك البلد.

ولما بلغته إرادة الملك بالغ في الضراعة بالتماس الإقالة حتى أقالوه فعجبَ الناسُ من أمره، فمنهم من أخذها عليه، ومنهم من عدَّها له، فقال قوم: إنه النزق. وقال آخرون: إنها القناعة.

وجرتْ حركاتُ الدهر فوقَ تلك الحركة التجارية حتى اتسعتْ هالتها، فجدد الملك إرادتَهُ بإقامة «مادلين» شيخًا لبلده، وجَدَّدَ مادلين طلب الإعفاء.

---

(1) ربًا، صاحبًا ومالكًا.

كل ذلك والرجلُ تزدادُ نَبَاهَةُ ذكره ويَسْمُو علو قدره. أحبتهُ العظماء، ودعته الأندية العالية، وحتى مشى إليه الكبير والصغير بالرجاء إلى الخضوع لتلك الإرادة فأكْرِهَ على ذلك المنصب إكراهًا. وكانَ بعض سقاط القوم يبسطونَ فيه الألسن ولا يحفظونَ له غيبًا، فقالوا حينما رأوه يجمع في أول أمره الأموال: إنه تاجر يطلبُ الإثراء، وقالوا حينما رأوه يستثمر ما جمعه: إنَّ به لجشعًا، وزعمُوا حين بدت لهم منه كراهةَ الترف والظهور: إنه أفقي لا يألف النعيم، ولا يعرف قدرَ السَّعَادَة، وحكمُوا حينَ بدا لهم منه رفضُ الدنيا: أنه مائقٌ يَجْمُلُ به الفقرُ ولا يليقُ بوجهه الغنى. ولبثَ «مادلين» في يومه مثله في أمسه لم يغير المنصب من نفسه، ولم يلهه الاشتغال به عن الاشتغال بما هو فيه، فبقي على ما عهدنا به من مداومة الإطراق وحب العزلة عن الناس. فإذا رأيته رأيتَ شيخًا آذن ليل شَعْره بالرَّحيل، وقد لوحته الشمس، وجال في عينه الوقار، ولاحت عليه سحنة الفلاسفة.

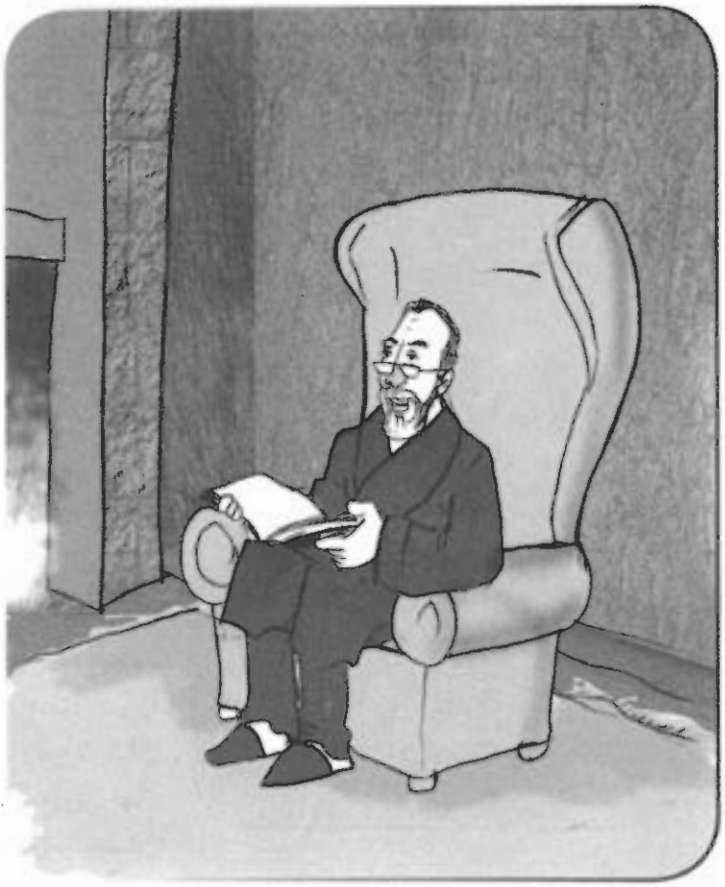

وكان يجلسُ للنَّظَر في أمور الناس؛ فإذا فرغ من ذلك انكفأ إلى حجرته فقضى لبانته من مأكله ومشربه وانكبَّ على مطالعة الكتب.

وقد رأى أن يعوض ما فاتَهُ من تحصيل العلوم في أيام صباه، فعكف على الدرس في أيام شيخوخته، وإن كان الفقر قد مَنَعَهُ في أوليات عمره من مزاولة التعلم فقد ساعدَهُ الغنَى في أخرياته على تناوله، ورأى الكتب صدرًا حليمًا وودًّا مقيمًا، فسكن إلى صُحْبتَها وارتاحَ إلى عشرتها.

وكانَ ينطلقُ إذا شمَّر النهارُ إلى المزارعَ والغابات، ومعه آلة صيد قد اتقى الله في استعمالها، فما هاج بها غرابًا ساقطًا ولا غال طائرًا لاقطًا، ولكنهُ كان يحملها لردِّ الغوائل، فيصحبها في وقت أمْنه لتؤمنه في وقت خوفه.

وكانَ مع ذلك ماهرًا في التسديد حاذقًا في التصويب، يُصَوِّبُ على الشيء ويرمي فيضع الرمية من الهدف حيث يشاء.

وهو فتي القوة قويّ الساعد، يرفع الجواد على كاهله، ويمسك بذنب الفرس، ويخلد به إلى الأرض، فيتحلحل إذا كان قويًّا، ويقعى إذا كان ضعيفًا، ويستقبل الثور الهائج فيأخذه بقرنيه.

وهو على ما فيه من القوة والبأس رقيق القلب يجد من الألم لغيره ما يجده لنفسه، فما مرَّت به جنازة إلا كان أول المشيعين لها، ولا امتحن إنسان بمكروه إلا كان أول المعزين له، وتراه عند انطلاقه إلى الجنائز يختلط

بجماعة القسيسين فينوحُ نوحهم ويرتل ترتيلهم، وكأن نفسه تسبح في غير هذا العالم، وعينه تشخص لغير ما يدركه الحس، وكأن أسلاكا من الإلهام الإلهي قد امتدت بين أذنيه وبين أسرار ذلك الأبد فجعل يلقي بسمعه إلى تلك الأصوات التي باتت تشدو بحزن على حفافي هاوية الفناء.

وكم من يد لَهُ على الفقراء، وصنيعة مع البؤساء، يغشَى دورهم وهم غير شاهدين، فَيُلْقِي لهم بالنقود تحت الوسائد وفوقَ الفراش، ثم يَنْسَلُّ تحت الليل كراهة أن يُرَى، كأنه يرتكب إثمًا أو يعالج اختلاس شيء.

ويعودُ ربُّ الدار فيرى فيها أثرَ «مادلين» فيظن أن اللصوص قد ارتقبُوا غيبته، فجاسوا خلال داره، فلا يزل يتفقد حاجه[1] حتى يعثر بتلك النقود فيأخذها وهو يقولُ: لقد أرادوا سلبَ نعمتي ولكن أبَى الله إلا أن أسلبهم ما لهم، وما ذاك إلا أمر نزل بهم فأذهلهم عنه، وكذلك كان يجيءُ بالحسنة وقد كفَى الفقير مؤونة السؤال ووفَّرَ عليه غضاضة ذلك الموقف. ولا تسلْ عند اللقاء عن طلاقَة وجهه التي كانت تستتر تحتها هموم صدره وعن محاسنته للمعدمين، فهو كما يصفونه، غنَيٌّ لم يخرجْ به الغنى عند حد التواضع، وسعيد لم تقف به السعادة على التَّبسط والانشراح.

وفي أوائل سنة 1821 م أجاب عابد «ديني» دعوةَ ربه، وقد نَيَّفَ على الثمانين من عمره، فنعته الصحف، وطار خبر نعيه حتى وقع في مسامع مادلين، فوجد عليه وجدًا شديدًا، وظهر من غده وعليه شارةُ الحداد. فتساءلِ الناسُ عن نبئه، ومشى بعضهم إلى بعض، وجعلوا يقولون: لقد كنا في ليل من الشك في أمر هذا الرجل حتى أضاءَ لنا حسبه الوضَّاحُ، فما هو إلا من تلك الأسرة الشريفة، ولا ريَب أن نسبه يتصل بذلك العابد التقى. وأقامُوا على ذلك اليقين أيامًا حتى تعرَّض لهُ بعضهم بالسؤال فقال وقد أخذ عليه طريقه: إني أراك تحمل شارة الحداد منذ نعي الناعي عابد مدينة «ديني» فهل أنت ممن يمتّ إليه بحبل القرابة؟

فقال «مادلين» وقد كاد ينطق الحزن في أحشائه: كلا، وإنما كنت في أول أمري خادمًا عنده. وكانَ العابد قبل موته قد كف بصره، فلبث كذلك بضع سنين لا يجد ألمًا لفقدان نور البصر وقد بقي له نور البصيرة!

وبقيت أخته بجانبه لا تنحرف عن صراط طاعته، ولا تنفك عن ملازمته!

فهي لا تريم عن مخدعه إلا لإمضاء أمره أو قضاء حاجته، وكانت تحرصُ على رضاه حرص المرء على حدقة عينه، حتى رأى أنه قد استعاض بعينه عن ذلك القلب الذي بات لا يغفل عن رعايته.

---

(1) حاجه: أي حاجته.

ولبثَ ذلك البصيرُ أميرًا لدولة القلوب، وكان يقول في نفسه: لو تمَّ الكمال لشيء في هذه الحياة الدنيا لأوشكَ أمري أن يتم كماله، فإني أراني لا ينقُصُني شيء من السعادة. اللهم إنكَ إنْ كنت قد استرجعتَ مني هبةَ النظر فقد جعلتَ أفئدةً من الناس تأوى إليَّ. اللهم إنَّ من أوت إليه الأفئدة كان خليقًا أن يصبح حامدًا ويمسي شكورًا. وكذلك كان أمره في آخر أيامه، وأخته لا تزال بجانبه يشاهدها قلبه وإن لم ترها عينه، وتتحسس روحُهُ روحَها في ظلمة هذه الدار الفانية حتى تعثر بها فتنجاب للقائهما تلك الظلمة ويبدو كوكب الصفاء.

نعمْ، كذلك كان أمره حتى انتقل من نعيم دنياه إلى نعيم أخراه.

وبلغ خبر منعاه «مادلين» كما ذكرنا فوجَدَ عليه موجدته وأقام على حزنه حتى انصرمت أيام الحداد.

وما زالَ الزمنُ يحلل من حقد مبغضيه، ويستلُّ الوساوسَ من صدورهم، حتى أصبح وليس في القرية من يرتاب في أمره، فسكنت إليه النفوسُ النافرة، وعطفت عليه القلوبُ الصوادف، وبات موضع الحاجة، ومحل الأمل، ومهبط الثقة، ينتجعه[1] المضطر، ويستعدي به المظلوم على الظالم، ويفدُ إليه المتخاصمان من الأطراف للمقاضاة فيصل بين المتقاطعين ويوفق بين المتدابرين، ويحكم بالتوفيق فلا ينحرف عن الحق كأن قانون الطبيعة البشرية قد طُبعَ في نفسه فطالعه ضميره وانطلقَ به لسانه. عطفتْ عليه القلوبُ الصوادف إلا قلبًا واحدًا كان يبالغ في الميل عَنْه، كلما بالغتْ قلوبُ الناس في الميل إليه!!

وكانَ هذا القلبُ في صدر رجل من كبار الشُّرْطَة قد هبط تلكَ القرية منذ العهد القريب، فشهد «مادلين» وهو في مبتسم زمانه، وعز سلطانه، وقد استقرَ في الذروة من الجاه، وبلغ الغاية من الغنى، فكان كلما مرّ به أحس بدبيب الكراهة في نفسه بصورة قد أعجزه إدراك مأتاها.

ولا عجبَ فإنَّ لبعض النفوس إشرافًا على خافيات الأمور يولد فيها من الشعور الحقيقي ما تنبسط له مرة وتنقبض أخرى.

وهو كذلك الشعور الذي يقع أحيانًا في نفوس البشر، فيحدث فيها عاطفة الميل أو النفور عند النظرة الأولى، ويقف فيها موقف المستبدِّ، لا يخضعُ لسلطان العقل، ولا يجيب نداء الضمير، فيقاطع بينها، يباين بين طبائعها، ويوحي إليها عند اللقاء، فترى النفس التي ركبت فيها طبائع الكلب، تركب نفرتها عند رؤية كل نفس، قد ركزت فيها طبائع الهِرّ.

---

(1) يطلب منه المعروف؛ يقال: انتجعت فلانًا: طلبت معروفه وإحسانه.

أقولُ ذلك ولو كانت نفوسنا مما يقع تحت الحس لرأيتَ كل واحدة منها ممسكة بذراع أختها من نفوس تلك العجماوات، ولعلمتَ أن لكل إنسان حيوانًا يمثل طباعه ويكيف أطواره، ولأدركت أن هذه الوحوشَ وتلك الأطيارَ لم تكن إلا تماثيل أعمالنا، فمنها ما يمثل الفضيلة، ومنها ما يمثل الرذيلة، وهي وإن لم تدركها الأبصار قد علمت بوجودها النفوس إلهامًا من الخالق الذي جعلها لها تذكرة واعتبارًا.

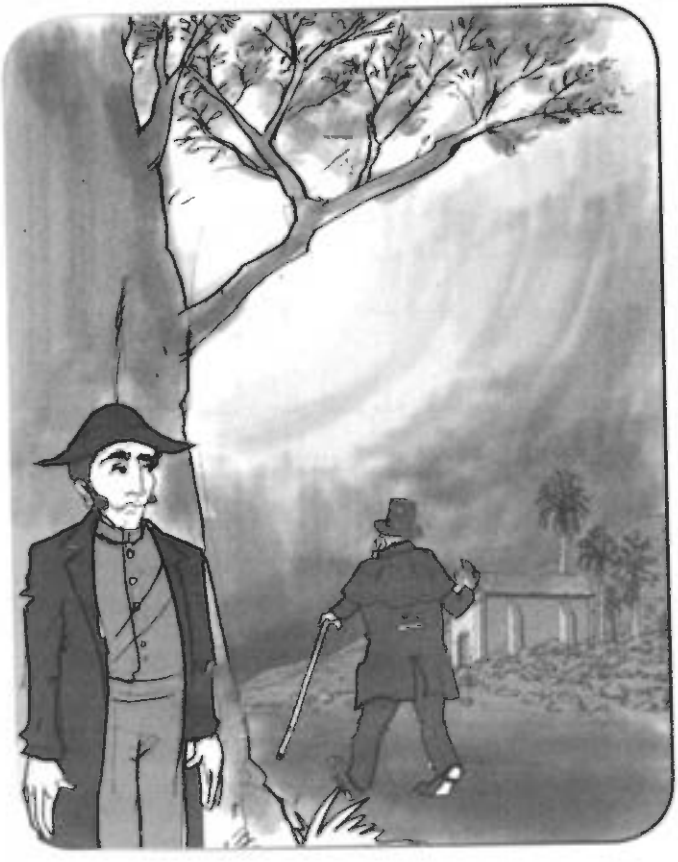

أمَّا الآنَ وقد سَلَّمْتَ معنا أيها القارئ أنَّ لكلِّ إنسان حيوانًا يمثل طباعه، فقد سهلَ علينا أن نمثل لك نفسَ ذلكَ الرجل الشرطي وأعني به «جافير».

زعمَ بعضهم أن الكلبَ إذا وقع على الذئبة أولدها جَرْوًا، وأنَ الذئبةَ تخشى إن هي أنظرته حتى يشبَّ أن يعطفَ على صغارها فيغتالها، فلذلك تنحي عليه وهو صغير.

فلو أننا جئنا بذلك الجرو، وأسكناه في هيكل بشري لتبين فيه القارئ شخص «جافير».

ذلكَ هو الرجلُ الذي ما فتئ يتعقب «مادلين» ويسيرُ على أثره مسيرَ القضاء في حجب الغيب فهو إذا لمحه ماشيًا كادَ بصره ينهب مواقع أقدامه، وإذا سمعه محدثًا كاد سمعهُ يخطف ألفاظه قبل أن تبرح فاه، وكلما وقع تحتَ بصره قال في نفسه: تُرَى

أين نظرتُ هذا الرجل، وجعلَ يطالبُ الذاكرة كمن يحاول تذكار شيء درجَ في أثناء النسيان، وينتهي بقوله: ولن يغلبني هذا الرجل على أمري وإن بالغ في إخفاء أمره.

وكان «جافير» مقيمًا بتلك القرية، كبيرًا لجماعة الجواسيس من الشرطة، والشرطةُ كما تعلم قومٌ يُعْرَفُونَ بسيماهم، تلوحُ بمعاطفهم مخايل السلطة، وتهبُّ من أردانهم ريحُ الخساسة، وكذلك كان «جافير» ولكنهُ لم يكن خسيسًا.

وكانَ مولدُه بسجن النساء حيث كانتْ أمهُ سجينة، وهي من هؤلاء النسوة اللاتي يحترفنَ باستطلاع الحظوظ من أوراق اللعب، وكان أبوه سجينًا بسجن الرجال.

فشبَّ ابن السجينين في حجر البؤس والشقاء، ولما بلغ أشده نظر فرأى بينه وبين ذلك المجتمع الإنساني سدًّا قد استحال عليه أن يجاوزه.

وعلمَ أن هذا المجتمع لا ينبذ وراء ذلك السد إلا أحد رجلين، رجلًا ناصبه العداوة فعمل على كيده، ورجلا منحه الوداد فعمل لمناصحته.

وقد وجب أن يكون «جافير» أحد هذين الرجلين فشمست نفسه عن الأول وسكنت إلى الثاني.

فانتظمَ في سلك رجال الشرطة، وأخلصَ في العمل، وحرص على الطاعة حتى عهد إليه بأمر التفتيش، وأصبح كبيرًا لفرقة من الجواسيس.

وكانَ يمقتُ الأشرار مقتًا شديدًا، ويتفانى في الإيقاع بهم وإن كانَ هو من سلالتهم.

وقبل أن يسترسلَ بنا القلمُ في تصوير خلقِ ذلك الرجل قد رأينا أن نصور للقارئ خَلْقَهُ فنقول:

كان «جافيرُ» ذا سحْنَة خاصة به، وكانت له لحية قد أغرى الموسي ببعضها وحرص على استبقاء بعضها، فأخصبَ عاليها وأجدب سافلها، واستهلت ذُرَاها عند العارضين، واجتثت أصولها عن العنفقة، وكان أفطس الأنف غائر المنخرين، يخال الناظر إلى غؤور منخريه وبروز شعر لحيته أنه يرى كهفين قد أقاما بين غابتين، وكان إذا تبسم -وقلَّ أن يقع منهُ ذلك- أراك ثغره أصول أنيابه، فهو إذا ضحكَ فَنَمِرٌ، وإذا غَتَّ من ضحكه فعقور، اتخذتْ لها العبوسَةُ بين عينه مسكنًا، وأطلت النفرةُ من محاجره وستر شعر رأسه جبينه وحاجبيه.

ذاك خَلْقُ الرجل نصورهُ للقارئ.

وأما خُلُقُهُ فقد كان قائمًا على خُلَتين كريمتين، إكبار السلطة الحاكمة، ومقتُ المستخفينَ بها، غير أن المغالاةَ فيهما قد خرجتْ به عن حدِّ الاعتدال فأنكرَ الناسُ منه ذلك.

فكانَ يرى أن كل ما يقعُ من جرائم القتل والسلب داخل في باب الاستخفاف بتلك السلطة، ويسترسل في الثقة بكل عامل في الحكومة وزيرًا كان أو حاجبًا.

وينظر بعين النفور والبغضاء لكل من وَلج باب المخالفة ولو لم يقعْ منهُ ذلك إلا مرةً في حياته. ويقولُ وهو يعتقد ما يقول: إنَّ القضاةَ بهم عصمة عن الزلل فهم لا يخطئون، وإن رجال الحكومة لهم إشراف على الأمور فهم لا يخدعون. ويزعم أن التوبة لا تغسل الحوبة، وأن المرء إذا أجرم مرة عاش دهره مجرمًا لا تنفعه الإنابة ولا يلوي بجريمته العقاب.

كذلك كان يبالغ في الخلتين ولا يستثنى أحدًا في الحالتين وهو مع ما ذكرنا عنه وقور صبور كثير التفكير خاشع القلب عالي النفس مهيب في العين قد أرصد حياته لشيئين لا ثالث لهما، السهر والمراقبة.

وكان يعمل على كمال اليقين من انتفاع الناس بعمله، ويراقب الله في ذلك العمل ولا ينحرف شعرة عن أوامر الدين ونواهيه، فهو في حرفته كالراهب في عبادَته.

والويل ثم الويل لمن وقع في مخالبه ولو كان من ذوي قرابته، فإنه ليرد أباه إلى السجن إذا قبض عليه وهو فارّ، وليعارض في رجوع أمه إلى بلدها بعد انقضاء سجنها.

وليفعل ذلك وهو أروح ما يكون نفسًا وأهدأ ما يكون ضميرًا ظنًا منه أنه إنما يرضي بذلك شريعة الأرض ولا يسخط شريعة السماء.

وكان عيشه بين التقشف والعزلة عن الناس، فما صادفه إنسان مرة متروضًا، ولا لمح عليه أثر الترف والنعيم، كأنه لم يخلق لغير الكد والعناء بين المراقبة والاختفاء.

وكنت إذا رأيته في حين تجسسه رأيت رجلًا قد غاب جبينه تحت قلنسوته، واستترت عيناه تحت حاجبيه، واختفت يداه تحت كميه، وانزوت عصاه تحت ردائه، حتى إذا عنَّ له صيد أو سنحت له فرصة انتفضَ فظهر لك ما أخفى من أمره كأنما خرج من كمين أو وثب من ظلمة إلى نور.

قلنا: إنه لا عيب في ذلك الرجل غير تلك المغالاة، فهو يغالي حتى في معاملته لنفسه. اللهم إلَّا ساعات معدودة من أيام حياته كان يرى فيها نفسه راضيًا عن نفسه فيهون عليها بعض الشيء من تلك المعاملة.

وآيةُ رضاه عنها، أن يعمد إلى لفيفة من الطباق فيشعلها، وكان ذلك مبلغ ارتياحه لنفسه، وغاية ما يرضاه عن مغبة عمله.

ذلكم «جافير»، ومن ذا الذي ينكر خطر «جافير»؟؟، هو حربُ المجرمين، وفخُّ الهاربين، وفضيحة المختفين، إذا لفظ اسمه أمام أشد العتاه انقلب على

عقبيه مذعورًا، وإذا لاحَ شبحه أمام أحد الفارين تقيد في مكانه بقيد من الرهبة.

فويل لك يا «مادلين» من هذه العين التي تترسم أثرك، وتلك الأذن التي تتسقط خبرك، ولا أحسبك إلا واجدًا في نفسك ما يجده لك ذلك الرجل في نفسه.

فأنت بالذي في قلبك عالم بما في قلبه، وإن كنت قد تحفظت ما شئت، وصابرته ما استطعتَ، وتكلفتَ السكون عند لقائه، وتحاميتَ طريق صحبته وجفائه، وزكنت منه على مثل ما زكن منك، وسألت ضميرك عنه بمقدار ما سأل ضميره عنك.

ولبثت تلك الحرب الخفية قائمة بين هاتين النفسين، وكلما فتح «جافير» بابًا من الدهاء أبطله عليه «مادلين» بقوة الصبر والجلد، حتى تزعزعت عزيمة الأول ولزم بيته ثلاثة أيام، وكادَ يأكل مقراض اليأس خيوط آماله، وأوشك أن يعتقد بحلول الفشل في مساعيه وأعماله.

واتفق ذات يوم أن أحد سائقي العجلات خرج غب سماء، ومعه عجلة يجرها جواد.

فانطلق بها في طريق كثير الوحل؟ ففارت فيه قوائم الجواد وأكب لوجهه، وسقطت فوقه العجلة، فبترت عظم ساقيه، وانقلب السائق تحتها فاستقت فوق صدره فجعل يستغيث ويستنجد، وهو مشفق أن يبتلعه الوحل.

فهب الناس لجهة الصوت ووقفوا ينظرون إليه، ولا يقدم أحد على الأخذ بيده.

وأقبل «مادلين» مهرولًا فنظر الرجل تحت العجلة يسوخ في الطين شيئًا فشيئًا، وهو كلما اضطرب طلبًا للخلاص كان اضطرابه مساعدًا على وأده في الطين حيًّا، فأشار إليه «مادلين» بالسكون ثم التفتَ إلى الجماعة وقال: أيكم قويّ العضل جليد القلب يدخل تحت تلك العجلة فيرفعها بظهره وأجره على ذلك خمسة ذهبًا.

فوجمَ القوم جميعًا فقال «مادلين»: إني أرى الوقتَ ضيقًا، وأرى أجل هذا الرجل أضيق منه فلا تخنسوا عن مساعدته، ولمن يفعل ذلك منكم عشرة ذهبًا وأن أبى إلا المزيد فعشرون.

وما كادَ يأتي على تلك الكلمة حتى سمع من ورائه رجلًا يقول: إن القوم لا تنقصهم الإرادة ولكن تنقصهم القوة.

فالتفتَ «مادلين» ليرى القائل فإذا به جافير، وكان لم يلمحه عند قدومه.

فحدق فيه «جافير»، وعطف قائلًا: وليعلم سيدي الشيخ أنه ليس على ظهر الأرض من يقوَى ظهره على رفع تلك العجلة اللهم إذا كان من العمالقة أو من أولئك السجناء الذين قضوا شطرًا من حياتهم في سجن تولون.

فغض مادلين من بصره واستشعر الخوف لأول مرة، وعلم أن «جافير» لم يقل ذلك إلا تعريضًا به وتقريعًا له، ولكنه غالب نفسه حتى ملكها.

ثم التفتَ إلى الجماعة ليرَى أيهم أقدم على هذا العمل، ولما لم يجد معينًا جثم على الأرض، ولم تكن إلا جولة فكر حتى رآه القوم تحت العجلة منبطحًا على وجهه، وقد حاول أن يجمع بين مرفقيه ويقرب بين ركبتيه ليعتمد عليهما في رفع تلك العجلة، فعالج ذلك مرتين ولم يفلح فخفقَتْ قلوبُ الجماعة إشفاقًا عليه، وظنوا أنه لا محالة هالك فصاحوا به: أولَى لكَ أن لا تطرح بنفسك ذلك المطرح من التغرير وإنا نناشدك الله أن تستبقي حياتك.

وقال له سائق العجلة وهو تحت كلكل الموت: إني أدعوكَ بالله أن تنجو بنفسك فإني ميت ولا عاصم اليوم من أمر الله.

كل ذلك ومادلين صامت لا ينبس، والقوم باهتون من عمله، والعجلة لا تنفك عن الهبوط حتى تعذر عليه الخلاص، وانقطع خيط الأمل من نجاته.

وإن القوم ليحفز اليأس أحشاءهم، وإذا بهم يرون العجلة وقد تحلحلت وجعلت تهتز فوق ذلك الطود الذي رسخ تحتها، وأخذت تصعد بعد ذلك الهبوط، وسمعوا صوتًا قد صحله[1] التعب يدعوهم إلى نجدته ويقول لهم: أعينوني بقوة فقد أمكنني الله منها.

وكان ذلك صوت «مادلين»، فأوفض القومُ إليها وانتزعوها من مكانها، وأفلت السائق من مخالب الموت، والموت خزيان ينظر، وكان هذا السائق يدعى «فوشلفان»، وهو من أعداء «مادلين» الذين أكل الحقد صدورهم ونهش الحسد قلوبهم.

وقد كان في أول أمره جنديًّا ثم صار تاجرًا فأثرى، ثم أملق حتى صار من سائقي العجلات.

وكان يبيت وهو يتقلب على جنب الحرد من الحسد كلما فكر في «مادلين» وفيما صار إليه أمره من الثروة والجاه ويقول في نفسه: لقد قدم «مادلين» وأنا تاجر وهو أجير، فأصبح بحيث يحسد وأمسيت بحيث أكمد.

ومن هنا كان مبعث حقده عليه ومثار حسده له.

ولما ثار «مادلين» من تحت العجلة بعد انزعاجها عن مكانها وهو باهت اللون ناضح الجسد ملطخ الثياب ممزقها تحامل «فوشلفان» حتى اقترب منه وانكب على ركبتيه يقبلهما وجعل يدعو له.

---

(1) أصحله: أثقله وأضناه.

كل ذلك والقوم يبكون من هول ما شهدوا، وينظرون إلى ذلك الوجه الذي بانت فيه آثار الجهد والعناء، ولاحت عليه سيما السرور والارتياح و«جافير» يكاد ينشق غيظًا في مكانه و«مادلين» يلقي عليه نظرات مطمئنة ويلمحه لمحات معنوية.

ولما انقضى ذلك المشهدُ، وذهب كلٌّ لوجهه، أمر «مادلين» بـ«فوشلفان» فَحُمِلَ إلى مصنعه وأفرد له فيه مكانًا ووكل به اثنتين من الممرضات وأوصى بالعناية به، وجعل يعوده طرفي النهار حتى أبل[1] من مرضه. ثم وجه إليه برقعة وقع له فيها بأربعين قطعة من الذهب وكتب بها أنه قد اشترى عجلته وجواده بهذا القدر من المال «وإن كان الجواد قد نَفَقَ على أثر سقوطه والعجلة قد تحطمت منذ ذلك اليوم».

ولما أبلَ «فوشلفان» من مرضه كان لا يزال يشكو بعض الألم بإحدى ركبتيه، فحال ذلك بينه وبين الرجوع إلى حرفته، فلذلك أقامه «مادلين» حارسًا لبستان «دير النساء» بباريس. وبعد تلك الحادثة بقليل وجهت الحكومة إلى «مادلين» ببراءة وظيفته. وكان «جافير» كلما لمحه حاملًا لتلك الشارة التي تأذن له بالتصرف المطلق في شئون وظيفته كادت تطير شظايا نفسه حسدًا. وشعرَ من نفسه بذلك الشعور الذي يقعُ في نفس الكلب إذا وجد ريح الذئب مختفيًا تحت ثياب ربه، ومن ثم جعل يتحامى طريقه ولا يلقاه إلا مكرهًا على لقائه. فكان إذا لقيه لقيه لقاء المحتشم المستكين، وإذا خاطبه خاطبه خطاب المتحفظ الرزين.

هذا ما كان من أمر «جافير» و«مادلين»، ولقد طال عليك أيها القارئ انتظار حديث «فانتين»، وطال عليها الوقوف أمام تلك القرية.

قدمت «فانتين» بلدتها وما نسيت ما كان من أمرها فوقفت تنظر إليها وقد تنكر لها كل شيء، ولم تر من تعرفه ولا من يعرفها، فسارت تعروها دهشة الغريب حتى وقف بها نصيبها على باب مصنع «مادلين»، فارتاحت لرؤية وجه ذلك الباب كأنما هي ترى وجه صديق لها، وعرضت نفسها على رب المصنع، فأمر بضمها إلى قسم النساء، فكانت تصيب الكفاف من الرزق لجهلها بتلك الحرفة الجديدة، وكان أجرها في اليوم لا يتجاوز حد القوت، ولكنها قد بلغت على كل حال مناها، وأمست تعيش من كسب يدها ففرحت بصيانتها لماء وجهها وحفاظها لعرْضها، وانكمشت في العمل حتى برعت فيه، وزادوا لها في الأجر فأمكنها أن تكتري لها مكانًا صغيرًا وأن تبتاع بعض الأثاث بالقرض والنسيئة، فبدأت بشراء مرآة كانت تنظر فيها عند كل صباح إلى نضرة شبابها

(1) أبل: شُفِيَ وعُوفي.

فتطرب كلما تمثل لها عَسْجَدَ[1] شعرها، وتراءى لؤلؤ ثغرها، وكادت تنسى هموم ماضيها ولم يعد لها من هم غير التفكير في طفلتها وفيما سيكون أمرها في مستقبل أيامها. وكانت تحرص كل الحرص على إرسال النفقة في حينها، وتبالغ في كتمان أمرها وتحتجر من الناس غاية الاحتجار، وتتحفظ من أن تسقط منها لفظة تشير إلى ذكر «كوزيت» أو محل وجودها، أو أن تخوض في حديث يجر إلى ذكر الزواج، ولكن أبى النحس إلا أن يلازم طالعها، فإنها كانت كلما أرادت إرسال النفقة إلى طفلتها في كل شهر استدعت أحد الكتاب فاستكتبته كتابًا إلى أصحاب النُّزل، وذلك لجهلها بالكتابة كما قدمنا، فكانت تستدعيه عند قدوم الليل والليل أكتم للسر، فولَّد ذلك بنفوس صواحبها بالمصنع بعض الشكوك، ولفت أنظارهن إلى مراقبتها، فجعلن يتحدثن فيما بينهن بأمرها ويقلن: ما لهذه الرسائل بد من سبب، وما بال هذا الكاتب لا يأتي إلا إذا أتى الليل؟ وما بال «فانتين» كاسفة البال تنزوي في طريقها عن الناس وتتحامى في المصنع الاختلاط بنا؟

(1) العسجد: الذهب، ويعني شعرها الأصفر.

ولا تعجب أيها القارئ، فإن أشد الناس مراقبة للناس من كان أبعدهم نفعًا من وراء تلك المراقبة، فهو يراقب لغير نفع يجذبه أو مال يكسبه، ولكنها غريزة فيه تثيرها الرغبة في الوقوف على أحوال غيره، فتراه ينفق المال، ويستخدم الرجال، ويمالئ كل من كانت له صلة بمن يراقبه من حاشيته وخدمه وأصحابه، ويكد ذهنه وينصب بدنه ويصرف النفيس من وقته في تسقط الخبر وتلمس اللفظ، ويجمع كيده لاستبطان الأمر، ويرصد نفسه لاستطلاع السر، فيخالط السوقة ويجالس أهل المنزلة التي هي دون منزلته، فيعقد لهم مجالس الشراب، وينفق عليهم ما يضن بإنفاق بعضه في سبيل البر وطريق الخير، ويكمن تحت الليل في زوايا الطرقات لا يبالي سقوط الجليد ولا يعبأ بوخز القر، ويجلد على احتمال تلك المشاق حبًّا في الاستطلاع ورغبة في الكشف، حتى إذا ألمَّ ببعض الأمر وانكشف له جانب السر جلس إلى أصحابه في الأندية يحدثهم وهو يميل بسالفته تيهًا ويثني عِطْفَه[1] كبرًا كأنه قد اهتدى ببحوثه تلك إلى كشف سر من أسرار الكون!!

كذلك كان حال «فانتين» مع تلك النسوة اللاتي يعتملن بذلك المصنع فإنهن قد أفرطن في مراقبتها، فعددن أنفاسها، ورقبن حركاتها، وذهبْنَ مع الظنون في أمرها، لمحنها مرةً وقد وقف الدمع في عينها موقف الحائر فانتحت ناحية من المكان وجعلت تمسحه في خفية فتغامزن عليها بالعيون، وأصبح الشك عندهن يقينًا، ولم يكن -علم الله- بكاؤها إلا لذكرى طفلتها وما كان منها مع ذلك الرجل الذي غلبها على أمرها.

وما زلن يوالين البحث حتى اهتدين على معرفة العنوان الذي تكتب به، واجتمعن بذلك الكاتب الذي كانت تستخدمه في الكتابة، فانطلقن به إلى إحدى الحانات، وكان الرجل خفيفَ الحال، مدمنًا للراح[2] يبيع ما في فؤاده من السر بكأس من الخمر، فحططن عليه بالشراب حتى استفرغن ما عنده من أسرار تلك الكتب، فعلمن أن «لفانتين» طفلة، وأنها غادرتها بنزلٍ في قرية «منتفرمي»، وما اكتفينَ بما وصل إليهن من ذلك العلم، بل بعثن منهن رسولاً يرى الطفلة رأيَ العين، وكان هذا الرسول شيخة من ذوات الأسنان، نسجت الشيخوخة على وجهها طبقة من التشويه، فزاد ذلك في دمامة خلقتها، وكان زوجها راهبًا قد فرّ من أحد الأديار، فتزوج بها ثم مات عنها منذ زمن طويل، فلبثت بعده أرملاً إلى هذا العهد، وكانت تعيش من فَضْلَةٍ قد بقيت لها.

تلك «مدام فيكتريان» التي كانت رسولهن إلى قرية «منتفرمي»، وهي التي قالت لهن عند عودتها: لقد أزلتُ الشك باليقين، ورأيت الطفلة رأى العين، وأنفقت على ذلك مئة وأربعين قرشًا.

---

(1) العِطْف: العُنُق.

(2) الراح: الخمر.

واستغرقت تلك المؤامرة زمنًا طويلًا حتى استوفت «فانتين» عمر العام، وهي بذلك المصنع، وفي ذات يوم دخلت عليها كبيرة دار الأجيرات فناولتها مائتي قرش وقالت لها: إن ربَّ المصنع يأمرك بالتحول عن هذا المكان، وإن أحسنت إلى نفسك فلا تسكني القرية بعد اليوم.

فجمدت «فانتين» في مكانها، وحاولت الكلام فخانها الصوت، ونظرت إلى وجه التي تحدثها لعلها تلمح فيه للعطف مجالًا، فخرجت تمشي على استحياء وهي أسوأ ما تكون حالًا، وكان ذلك في الشهر الذي لؤم فيه صاحب النزل واشتط في طلب النفقة منها، فانكفأت إلى حجرتها، وجلست تفكر فيما سيئول إليه أمرها، وكانوا قد أشاروا عليها بمواجهة الشيخ «مادلين» لتنفض إليه جملة حالها لعلها تصيب منه قلبًا رحيمًا، فمنعها الحياء من ذلك وقالت في نفسها: لقد أمر بإبعادي لأنه عادل، وجاد عليّ بمائتي قرش لأنه كريم، وما عسى أن يفعل الرجل معي أكثر من ذلك، وقد وقع في نفسه ما أنهى إليه من أمري!

كان «مادلين» بريئًا من ذنبها، لأنه لم يكن من عادته الدخول إلى دار الأجيرات، فلم يشرف على أعمالهن، وقد عهد بذلك إلى واحدة منهن عرف فيها الاستقامة وصفاء السريرة، فأقامها رقيبة على الأجيرات، ومنحها التصرف المطلق في أمورهن، وكانت تلك المرأة بمنزلة من الأمانة والرفق في العمل وإسداء المعروف، ولكنها لم تبلغ المرتبة التي إذا عرف أهلها بوجود الذنب ذكروا العفو عن المذنب، فهي التي باشرت التحقيق في أمر «فانتين»، وهي التي حكمت عليها وقامت بإمضاء ذلك الحكم وطلبت من مادلين التصديق عليه.

كل ذلك يجري بالمصنع في قسم النساء و«مادلين» لا يعلم منه شيئًا، ولا عجب فإن أمثال هذا الرجل من أصحاب النفوس الزكية والقلوب النقية يتركون النظر في شؤونهم إلى من يرون فيه الإخلاص ولايحاسبونه يومًا على ما يأتيه من ذلك العمل.

ولما غادرت «فانتين» المصنع على أثر تلك المؤامرة لم تر بُدًّا من البقاء في القرية لأنها قد ابتاعت أثاث منزلها بالقرض والنسيئة، وقد بلغ التاجر ما نزل بها فأنذرها بسوء العاقبة إن هي غادرت القرية قبل وفاء دينه، وكذلك كان حالها مع ربة المنزل الذي استأجرت فيه قاعتها على أنها قد قسمت بينهما ما أحسن به عليها «مادلين» واستمهلتهما في المقاضاة فيما تبقي عليها، وردت إلى التاجر بعض ذلك الأثاث وحفظت منه ما لم تر بدًّا من حفظه، وعولت على العمل، فطرقت جميع الأبواب، والتمست أن تكون خادمًا بأحدها، فلم يكن نصيبها غير الرد والإعراض، فعادت إلى منزلها تتعثر في ذيول الخيبة، وما زالت تطالب فكرتها في استنباط عمل تعيش من ورائه حتى فتقَ لها الذهن أن تعاود حِرْفَةَ الخياطة، فكانت تخيط الأقمصة

لعساكر الحرس، فتصيب في يومها اثنى عشر صلديًّا تحفظ عشرة منها لنفقة «كوزيت» وتنفق اثنين من أحراز مسكة الحوباء. وكانت تساكنها بتلك الدار عجوز من البائسات، قد مارست صنوف الشقاء، وتقلبت بها أحوال العسر والمتربة، فجعلت «فانتين» تجلس إليها في كل يوم، وتأخذ عنها دروس العيش في الخلة والضيق.

وليعلم القارئ أن وراء العيش من القليل منزلة أخرى، وهي العيش من لا شيء، وأن هؤلاء البؤساء الذين شبوا وشابوا بين شظف العيش ونكد الحياة لهم فنون وأساليب في الانتفاع باليسير من المال، فتراهم يتلمسون من وراء الدافق[1] منافع عديدة، ويقضون بالسحتوت الواحد حاجًا متنوعة. ولقد أصبحت «فانتين» بفضل تلك الدروس بارعة في فن الحياة، فاستغنت عن النار في الشتاء، وعن اللحوم في الطعام.

وعرفت كيف تجعل من ثوبها غطاءها، ومن غطائها ثوبها، وأدركت كيف تقتصد ضوء شمعتها فتأخذ طعامها على ضوء الشفق أو على أشعة النور الذي ينفذ من طاق جارها، وكانت تقول لجارتها وهي تحدثها: إني لأقضي عامَّة النهار وثلثي الليل وأنا أخيط فأكاد أصيب بذلك ما أتبلغ به من الخبز اليسير، وإني بحمد الله حزينة القلب كسيرة الخاطر، ومن كان حاله كحالي من الهم كان خليقًا أن لا يتناول غير القليل من الزاد، فأنا أتبلغ بذلك الخبز اليسير، وأتأدَّمُ بهذا الهم الكثير، وأجد منهما غذاء أمسك به النفس وأحفظ به الحياة!

وفي تلك الضائقة التي يخرج احتمالها عن طاقة البشر كانت تمر بفانتين ذكرى طفلتها، فتجد لذلك سرورًا لا يعادله عندها شيء، فيدعوها الشوق إليها إلى طلب استحضارها من ذلك النزل، ولكنها تراجع نفسها بقولها: أي ذنب جنته تلك الصغيرة حتى يقضي عليها أن تشاطرني هذا البؤس، وهب أن هذا الذي أنا فيه لم يكن بؤسًا فمن أين لي نفقة الطريق ووفاء ما عليَّ من الديون لأصحاب النزل حتى أستخلصها من أيديهم؟ إن هذا لأمل بعيد!!

وكانت تلك المرأة التي علمتها دروسُ الحياة من ذوات النفوس العالية وأهل العفة والقناعة تسدي المعروف إلى الفقير والغني، وتفعل الخير لأجل الخير، ولا تعلم من الكتابة غير رسم توقيعها وتقول: إن الله موجود ولا تعرف غير ذلك. وكم من فضائل كامنة في نفوس أمثال هؤلاء الذين نزل بهم الدهر إلى الحضيض، ستعلو بهم ذات يوم إلى عنان السماء، فإن لكل يوم غدًا.

ولبثتْ «فانتين» كثيرة الخجل شديدة الحياء من نظر الناس إليها وهي على تلك الصورة من خفة الحال ومظهر العوز والاحتياج، فلزمت بيتها زمنًا طويلًا، وكانت إذا

---

(1) الدافق: ضرب من المال ضعيف، وكذا السحتوت.

دعتها الحاجة إلى الخروج لابتياع شيء أو قضاء أمر، مشت في الطريق وهي كاسفة البال تودُّ لوساخت بها الأرض لتختفي عن أنظار المارة، وكانت تشعر كأنهم يترسمون بالنظر مواقع أقدامها، ويشيرون بالأصابع إلى رث ثيابها فتغض من نظرها، وتحتث قدميها للهروب من تلك النظرات التي اخترقت إهَابَها وأدْمَتْ فؤادها.

ولو كانت تلك البائسة في باريس لما لفتت إليها نظرًا ولا استوقفت ناظرًا، ولأرخَتْ عليها ظلمةُ الفقر سدولًا تحجبها عن العيون، ولكن في أمثال تلك القرى الصغيرة قلَّ أنْ يجد الناس ما يشغلهم عن مراقبة الناس. ومرت على «فانتين» ثلاثة أهلة، وهي تروض نفسها على احتمال ذلك الازدراء كما راضتها على احتمال مرة الشقاء، حتى نضب ماء الحياة من وجهها وزال ذلك الشعور من نفسها، وصارت تمشي في الطريق وهي طارحة رداء الخجل لا تبالي تلك النظرات، ولا تحفل بهذه اللفتات، وكانت تلازم ثغرها ابتسامة، الله أعلم بما يمتزج بها من مضاضة الحياة، وتنأى بجانبها عن الناس شامخة الأنف عالية الرأس.

وكانت كلما لمحتها مدام «فيكثريان» حاسبها الله وهي تمرح في قدّ تلك الخلة والضيق، وتمشي هذه المشية في الطريق حمدت مغبة عملها، وأثنت على نفسها إذ حالت بين تلك البائسة وبين الهناء، وردتها بفضل سعايتها إلى ذلك الشقاء، ومن الناس من لا يجد سروره إلا في ألم غيره. نفوس فُطِرَتْ على الشر، فلا يصفو لها مورد السعادة ما لم تَشُبْهُ شائبة من الأذى.

قلنا: إن «فانتين» كانت تقضي عامة النهار وثلثي الليل وهي عاكفة على العمل، فلم تزل تلك حالها، حتى أوهَنَ الإفراط في العمل من عَزْمِهَا، وزادَ في ذلك السعال الذي كان جاثمًا في صدرها، فاشتدت بها الضائقة اشتدادًا يعزبُ معه الصبر.

ولكنها كانت كلما مشَّطت عند الصباح شعرها بذلك المشط الذي أسقط الدهر أسنانه فكان أشبه الأشياء بثغر الأدرد، فنظرت جمال فرعها المرسل إرسال الحرير اختلست رقدة من عين الدهر ومدت يدها لمصافحة السرور.

وكانت قد خرجت من المصنع في أخريات الشتاء، فانصرم الشتاء، وانطوى على أثره الصيف، ودار الفلك دورته فإذا الشتاء التالي يقرع باب «فانتين» قرعًا ينذرها بيوم قصير وجو مطير وضباب مقيم وأفق مظلم ونهار يعثر صباحه بمسائه وليل يجهل أوله آخره وشمس ومداء وسماء مكفهرة الأرجاء، وعيش كثير المؤونة، وفصل هو حرب الفقير وهلاك الضعيف، يقل فيه العمل وتكثر النفقة فتطلب المعدة الغذاء، والجسم الرداء، ويلتمس المقرور النار، ويضيق بصاحب الكفاف رحب الدار.

فَصْلٌ يُحوِّل الأفئدةَ إلى صخور، ويرد السائل إلى جماد، قددهم «فانتين» وهي

بين الخلة والقلة، فزاد في دَيْنها وكساد حرفتها، فسقطت عليها مطالبُ الغرماء سقوط القضاء، وألح صاحب النزل - قاتَلهُ الله - في طلب النفقة والتماس الزيادة فيها حتى زهدت فانتين في حياتها وحبب إليها قرب يومها. وجاءها منه ذات يوم كتاب يذكر فيه أن ابنتها أصبحت عارية الجسد وأنها إن لم تتداركها بإرسال أربعين قرشًا لا بتياع لباس لها فهي هالكة لا محالة.

فوقع ذلك الكتاب في نفس «فانتين»، وأحزنها طول يومها، ولما كان المساء انطلقت إلى حانوت حلاق فوقفت أمامه ونزعت ذلك المشط الذي كان يمسك شعرها فانسدل على ظهرها وستر أردافها فصاحَ الحلاق: لله ما أجمل ذلك الشعر، فقالت فانتين: انظر كم تدفع من الثمن إذا بعتكه؟ قال: أربعون قرشًا. قالتْ: عَجِّلْ بقصِّه، فقامَ الرجلُ إلى مقصه، وأهوى به على شعرها وأعطاها الثمن، فاشترت به لساعتها لباسًا، وبعثت به إلى طفلتها، فساءَ ذلك صاحب النزل، وأغضبه لأنه كان يطمع في الدرهم لا في اللباس، فأعطاه إلى إحدى بنتيه، وبقيت «كوزيت» في جلدها تقضقض من البرد، وترتعد من الجليد، كل ذلك وأمها تظن أنها باتت تمرح في ذلك الكساء الجديد، ولا علم لها بما تقاسيه من ذلك الألم الشديد.

وكانت «فانتين» كلما أحست بألم فراق شعرها وجدت لذلك بعض العزاء، لأنها لم تفقد ذلك الشَّعر إلا لتحفظ حياة تلك الطفلة.

وتمر بها ساعات تذكر فيها حسن شعرها فينقبض صدرها ويمتلئ حقدًا على ما يحيط بها، ويمتد ذلك الحقد حتى يتناول «مادلين» ذلك الذي كانت تشاطر الناس محبته بالأمس، وقد أصبح اليوم من أبغض الناس إليها لكثرة ما سمعت من أنه هو الذي أمر بإبعادها وأنه أصل شقائها وسبب بلائها.

وكانت كلما مرت أمام ذلك المصنع تكلفت السرورَ والابتسام، وجعلت تغني غناء رضيّ البال رضيّ الحال، تُوهمُ بذلكَ أهلَ المَصنع أنها اليوم أنعم منها بالاً بالأمس، وما خفي عن أصحاب المصنَع أمرها، فقد قالت إحدى عجائز الأجيرات حين لمحت «فانتين» وهي على تلك الحال ويلٌ لهذه الفتاة من سوء المصير!!

وما زال الشقاء يجر على «فانتين» الشقاءَ حتى حدَّثت نفسها أنْ تتخذَ لها عشيقًا جديدًا، وقررت أن يكون أول من تلقاه في طريقها كائنًا من كان.

فوقفَ نصيبها على موسيقار رقيق الحال، غليظ القلب، عاطل يتكفّف، وسائل يستكف، لا يعرف العشق، ولا يفقه معنى المداعبة، فطارحته «فانتين» حديث الغرام، فلم تره يحن إلى شيء من ذلك، على أنه ما لبث أن هجرها بعد أن ضربها ونهرها.

فخلا فؤادها من كل حب إلا طفلتها، فكانت تراها في ظلمة ذلك اليأس كنجم

يلمع في سماء آمالها، لأنها كانت تخلو بنفسها فتحدثها بتلك الآمال التي تلوح لها بوارقها في جو الخيال. ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لأطاقت حمله، ولكن صاحب النزل كان يزيد في ألمها ويروعها كل يوم بطلب جديد.

كتب لها أن ابنتها مريضة محمومة وأنها إن لم تسارع بإرسال قطعتين من الذهب لوقايتها وعلاجها فإنه يخشى عليها عادية الموت، ولا تسل عما حل بها حين أخذ نظرها ذلك الكتاب، فقد خرج بها الألم عن حد الإدراك، فجعلتْ تضحك وتهذي، وخرجت تطفر[1] في الطريق طفر الأطفال، وتضحك ضحك الأبله المعتوه، وتقول لنفسها: قطعتان من الذهب، اللهم غَفْرًا، ترى إن هؤلاء القوم لا يعقلون!!

ولم تزل كذلك حتى وقفت على لفيف من الناس قد التفوا حول طبيب للأسنان يعرض عليهم أسرار صناعته، وما يلتحق بعلاج الأسنان وتنقيتها، ونزع المتآكل من الأضراس وغير ذلك، فاندست «فانتين» في غمارهم وهي لا تزال على ذهولها تضحك ولا تعي، فصاح الطبيب حين لمح لؤلؤ ثغرها أتبعينني أيتها الفتاة ثنيتيك[2] بقطعتين من الذهب قالت «فانتين»: وما الثنيتان أيها الطبيب؟ قال: هاتان اللؤلؤتان اللتان تلمعان بمقدم ثغرك، فصاحَتْ «فانتين»: غفرانك اللهم إن هذا لهو الضلال المبين!! وكانت بجوارها عجوز دَرْدَاء تسمع كلام الطبيب فقالت تُكَلِّمُ نفسها: قطعتان من العَظْم بقطعتين من الذهب لله ما أسعد تلك الفتاة، على أن «فانتين» لم تكد تسمع كلام ذَلك الطبيب حتى رجعت أدراجها، وقد سترت لؤلؤ ثغرها بمرجان شفتيها، ووضعت إصبعيها في أذنيها كيلا يصل كلامه إلى سمعها، وهو مع ذلك يصيح في أثرها: أيتها الحسناءُ تمهلي في الأمر واستوزعي فؤادك يلهمك القبول، واعلمي أنك لم تُغْبَنِي فيما عرضناه عليك من الثمن، فإذا كان المساء فأغشينا بدارنا بمكان كذا، فوقع كلامه في أذنها رغم أصابعها، وزاد في نفورِه، فانطلقت حتى إذا بلغت دارها عطفت على جارتها العجوز وهيَ أشد ما تكون غيظا، فأخبرتها خبرَ الطبيب وما كان منه، وقالت: لقد بِعْنَا الشَّعْرَ لأنه يعودُ فينمو، ولكن ما حيلتُنَا في الأسنان ومَفْقُودُهَا كما تعلمينَ لا يعود، وهي حِلْيَةُ الثغر، ونقطةُ دائرة الجمال، ثم غادرتها، وانكفأت إلى حجرتها، وعكفت على خياطتها، ولم تكد تستقر في مكانها حتى ندرت الإبرة من يمينها، فقامت مسرعة إلى ذلك الكتاب المشؤوم ورجعت إلى جارتها تسائلها عن معنى تلك الحمى ونتائجها فقالت لها: إنها مرض من الأمراض يعتري الكبير والصغير، وهو اليوم أكثر وقوعًا في الأطفال فقَالت «فانتين»: وهل يجرّ هذا المرض إلى القبر؟ قالت: نعم يجر إلى القبر إذا تخلت عن المريض العناية،

---

(1) تطفر: تنط وتقفز.

(2) أسنانك العليا.

فخرجت فانتين من عندها، ونظرت إلى الكتاب نظرةً أخرى ولبثتْ بقية يومها نهبًا للهواجس، ولما توفي اليوم النهار رآها بعضهم، وقد أخذتْ طريقها إلى دار ذلك الطبيب فانتزع اللؤلؤتين، وحباها القطعتين، ودخلت جارتها في صباح الغد مبكرة إليها فألفتها جالسة فوق سريرها وهي شاحبة اللون ساهية الطرف، تنطق بوجهها آثار السهر، ويدل تضعضع حالها على أثر نزال قام بينها وبين ليل كان أطول من شعرها وأسود من حظها، وعلى القرب منها شمعدان قد فنيت شمعته، وخلقت على جوانبه شباكًا من دموع أسالها اللهيب وجمدها القرّ.

وتقف جارتها أمام ذلك المنظر الذي يقطع نياط القلوب جزعًا وتنادي: ويلي عليك أيتها البائسة، تشعلين الشمعة كلها في ليلة واحدة، فما عسى يكون قد نزل بك من الأمر، ومالي أراك كأنك قد انتفضت من كفن أو أفلت من ظلمة رمس؟ فالتفتتْ إليها «فانتين»، وقد أهرمتها تلك الليلة الماضية فأخذت من شبابها، وبلغت منها ما لم يبلغه كر الغداة ومر المشي، عشرة أعوام كاملة فتقول لها: ليس بي بحمد الله من شيء بعد إنقاذ طفلتي من يد الموت بهذا الذهب، وتنظر جارتها وهج الذهب بجانبها فتصيح: اللهم إنها ثروة، فمن أين لك هذا وقد عهدتك بالأمس لا تعرفين وجه الفضة؟ فتبتسم فانتين ابتسامة تنم عن لعاب دام قد لوث ركني شفتيها، وثغرة مظلمة في وسط ذلك الثغر المضيء، فتعلمُ جارتها كَما علم القارئ أن تلك الثغرة المظلمة هي مكان تينك اللؤلؤتين!!

وانطلى خداع صاحبُ النُّزُل -برئت منه المروءة- على «فانتين»، فوجهت إليه بطلبته، ولم تكن طفلتها مريضة كما يرجف، ولكنه شَرَكٌ قد مده لاصطياد دراهمها، حتى سلبها عسجد شعرها ولؤلؤ ثغرها، وأصبحت عُطلًا من الحلى والجمال، فكسرت تلك المرآة التي كانت تجد في النظر إليها بعض الهناء أيام صحبتها شعرها، وتحولت عن قاعتها بالطبقة الثانية إلى قاعة أخرى بسطح المنزل قد أعدت لسكنى البائسين، وكانت ذات سقف مسنم يرتكز وجهاه على وجه الأرض إذا دخل فيها ساكنها البائس انحنى تحت سقفها انحناءه تحت أثقال العيش وأعباء الحياة.

ولم تكن تشتمل على غير خشبة قد طُرِحَتْ على الأرض، وخلقة كانت تسميها غطاء، وكرسي قد نزع تقادم العهد أحشاءه، وجَرَّة كنت ترى الماء فيها سائلًا وأخرى جليدًا، وزهرية قد جف طينها وذبل زهرها، وفتاة قد نزعت نقاب الحياء وعافت زينة النساء تخرج في الطريق وعليها ثوب خلق رديم ممزق الأديم، قد أهملت رتق فتوقه، وأغفلت سد خروقه، وما أدرى أكان ذلك لضيق في وقتها أو لعدم اعتناء منها بأمرها، وهي تنتعل حذاءً قدْ كشر عن نابه، تحت جورب قد نصل عن خضابه، يحيط بخصرها نطاق بالٍ مرقع يكاد إذا تنفست فيه يتقطع.

وتنكفئ إلى غرفتها وقد بضع الهم من فؤادها بضعة، وعبَّست الخيبة وجه أملها، واشتد الأمر وضاق، وتقابلت حلقات الوثاق، وسطا عليها سعالها سطوة الجبار، ولزمها ملازمة غرمائه بالليل والنهار فتقضي فحمة الظلام منفرة المنام سميرة الآلام حاضرة الدموع غائبة الهجوع، وتفني شمعة النهار بين وخز الإبر ووكز الفكر، وقد قدر عليها الله الرزق فأجراه لها من سم خياطها، وهبطت أسعار الأجور فنزل أجرها في اليوم من اثنى عشر صلديًا إلى تسعة فاستحال عليها إمساك الرمق بهذا القدر اليسير، على أن طفلتها وحدها كانت تكلفها فوق ذلك، ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لقلنا خطب يهون، ولكن صاحب النزل قد خرج عن أفق الاعتدال فأرسل يطلب منها أربع قطع ذهبية ويقول لها في كتابه: لقد منينا بأمر طفلتك وصبرنا منك على ما تعلمين، فإن لم تسارعي بإرسال هذا القدر من المال نبذنا «كوزيت» بالعراء، وطرحنا بها في مساقط القضاء، فهي إن أخطأها برد الشتاء فليس يخطئها نازل البلاء ولقد أبلّت اليوم من مرضها ولكنه إبلال يعقبه الموت إن فاتك في أمرها الفوت. فما الجرح ينكأ به الجرح بأوجع في نفس الجريح من ذلك الكتاب في نفس «فانتين» فإنها قالت بعد قدومه: اللهم إنك تعلم إنني بِعْتُ الشعر والأسنان بيعة وكس، وصبرت حتى ملني الصبر، وقد كانت لي صبابة عيشي تكفيني السؤال فما زالت ترتشف منها الحاجات حتى أنضبت، اللهم لم يبق إلا العِرْض وقد أمست تساومني فيه الأيام، فلا راد لقضائك ولا مذهب من ورائك!

***

أبى قدر الله إلا أن تمزق الفاقة ثوب ذلك العفاف، وأن لا تركب «فانتين» غير سبيل الخسار، فابتذلت خدرها وباعت عرضها، وعرض منها البؤس على هذا المجتمع الإنساني أَمَةً فاشتراها، عرضها عليه في سوق الألم فابتاعها بكسرة من الزاد وكان فيها من الزاهدين فأف لتلك المدنيَّة غلبت الناس على أمرهم، وزادت في أسرهم، نفس حرة تباع بكسرة. وعرض مغبون فيه يتساومون، ولا زلنا نسمع عن هذه المدنيَّة آيات المدح والثناء وتطن في آذاننا أصوات المرجفين في أنحاء البلاد برفع الرق والاستعباد عن رقاب العباد، أين كتاب السيد المسيح؟ وأين ما جاء فيه من الحكم الصريح؟ طليتم وجه مدينتكم بطلاء من كلماته، وأفرغتم فؤادها من حكمه وعظاته! فتأول حكمه منكم الظواهر ووقف عن تناول ما في السرائر! أوهمتم الناس بانطواء أجل الرق، وفاتكم أنه وإن خف حمله عن أعناق الرجال، فقد باتت تنوء بثقله أعناق النساء!!

تملق المرأة فتجوع وتعرى، فتركن إلى الصبر والتجمل، فيضيق عن ذلك ضعفها، فتفزع إلى السعي وراء الرزق من أشرف وجوهه، فيقعد بها الدهر، فتبيع الناس

نفسها فيتنافسون في المساومة، حتى إذا ظفروا بتملك تلك النفس المعروضة في سوق الشقاء سجلوا عليها فعلتها تلك في باب الزنا، وتغاضوا عن تسجيلها في باب الرق وهو بها أحق، وهي به ألصق!!

ويل للمرأة من الرجل يسترقها، وما يدريه ما المرأة؟! هي وعاء النسل، وظرف الحمل، هي زينة الحياة، وزهرة الجناة، هي بيت الجمال، وموطن الدلال،هي مسكن الضعف، ومهبط العطف، فيا لله ما أكثر مخازي الرجال!!

ذلك مثل «فانتين» في ابتذالها لخدرها بعد أن نزلت من المكروه منزلة ينقطع العقل عن تقديرها، ويجمد الذهن عن تصويرها، وبعد أن أنذرها الدهر بالانسلاخ عن هيئة العالم، وأنذرها العالم بالخروج عن دائرة الوجود فتسكعت في الضلالة وتبسطت على الإثم وتمرغت في حمأة الغي، فخَوى هيكلها روح الشعور، وكتب اليأس على لوح صدرها المثلوج قول ذلك الحكيم، لا رغبة ولا رهبة، فأصبحت لا تخشى نازلا، وأمست لا ترجو نائلا وباتت لا تبالي لأنها ما انتفعت بأن تبالي. مرَّ بها زمن وهي تصابر القضاء، وتنازل الشقاء، وتعانق الخطوب وتصافح الكروب، وتصبر على ذلك صبرًا كان أشبه بعدم المبالاة من الحمام بالمنام، فلم تنتفع بصبرها ، ولم تخرج من عسرها، فما عساها تحذر اليوم وهي كاالإسفنجة سكن الماء أحشاءها وغمر أنحاءها، سيان إن طاف بها المحيط أو سقط عليها الندى!

***

توجدُ بعامة القرى الصغيرة سيما القرية التي تسكنها اليوم «فانتين» طبقة من نشء الشبان العاطلين الذين يعيشون من وراء دخلهم السنوي، وأن أحدهم ليظهر بين أهل القرية بمظهر من الترف والنعيم لن يبلغه ساكن باريس أو ينفق أضعاف ما ينفق ذلك القروي، وقد جمعت هذه الطبقة في قريتنا تلك من أمثال هؤلاء الباهلين عددًا كبيرًا، فتراهم يجلسون في صدور المجالس وقد نفخ شيطان العظمة في معاطسهم، فجعلوا يتفاخرون بما ملكت أيمانهن: فمن تيَّاه بكثرة رجاله، ومن مدل بوفرة ماله، ومن معجب بحسن سمته وهندامه ومن مولع بالتفنن في أساليب كلامه. يتحرش أحدهم برجال الشرطة فيحفظهم بتعنته حتى يجرّ الأمر إلى المشاجرة فيقال: فلان لا يعبأ برجال الحكومة، وينطلق الآخر إلى التصيد والاقتناص كي ينوّه بذكره فيقول: انطلق النبيل إلى الصيد، ومنهم من يتورن[1] ويتزين فهو أنى خطر تأرج المكان بعطره واشتغل الناس بذكره، ومنهم مدمنُ الخمر ومدمن الجلوس في الأندية حتى يفد السائحون.

---

(1) تورن: أي تعطر فأسرف التعطر

نعم وفيهم المتغالي في التقليد والمولع بالجديد، والذي لا يرى نفسه ظريفًا إلا إذا قاد كلبًا وازدرى نوع النساء فتأنق في التعريض بهن واستهتر في تقريعهن.

وكان الظرفاء في هذا العهد يغالون في البزة، ويتأنقون في الزي وشارتهم يومئذ أردية زيتونية اللون مفضضة الأزرار، وأحذية تحيط بأعقابها أهلة من الحديد وبكل منها مهماز للجواد شأن الفرسان، وعلى رؤوسهم قبعات عالية البنيان كزة الأطراف فوق شعر مجعد كثيف، وبأيديهم عصى غليظة كأنها الجذوع، دع الشوارب الطوال، والزيق المرتفع، ومنديل الرقبة المرسل على الصدر.

أذكر من بين تلك الطبقة المفتونة شابًا لم ينظر مدى عمره سماء باريس ولم يبرح دهره أرض تلك القرية، نشأ بين أفراد تلك الطبقة ففعل شرواهم وذهب مذاهبهم، وكان مثله كمثلهم، دخل قليل وعقل يسير، وسفه يوازنهما ونزق يعادلهما.

اتفق أن وقف ذلك المغرور ذات ليلة أمام أحد الأندية وفي فمه لفيفة من الطباق، وكان ذلك غب سماء، وقد انتشرت على وجه الأرض طبقة من البرد.

وتمر أمامه «فانتين» وهي عارية الأكتاف وعليها ثوب قصير تتجمل به النساء في المراقص، وكانت تلك عادتها منذ نصف عام، تعتمد الليل وتركب ذلك الطريق فتقبل فيه وتدبر بعض ساعة كأنها حرسي يحفظ السبيل، أو جندي أذنب فكان عِقابه السير فوق ذلك الجليد جيئة وذهوبًا، ويتعمد ذلك المغرور كلما مرت أمامه أغاظها ويتحرى إهانتها، فيعبس وجهها بكسفة من دخان لفيفته ويرسل عليها شواظًا من الإهانة والسباب فيقول: ما أبشعَ هذا الوجه وما أخلقَ حامل ذلك الثغر الأدرد بالانزواء عن أعين الناس، وتسمع «فانتين» ما يقول وكأنها لا تسمع، فتنطلق في طريقها وتواصل سيرها فيه إقبالًا وإدبارًا وهو في مكانه يكاد يقطر غيظًا.

ويحركه ذات مرة سكونها، فينطلق خلفها انطلاق الذئب خلفَ الفريسة، وهو يغت من ضحك المغيظ، ويدانيها فيهوى بيده إلى الأرض، فيقبض قبضة منَ البرد وينقضُّ عليها، فيدسّه بين ثوبها وظهرها، وينتشر البرد من ملتقى الكتفين إلى مستدق الصلب، فتزأر «فانتين» زئير اللبؤة، وتنفتل انفتال النمر، وتنشب أظافرها في وجهه وهي تصيح من فرط الألم بصوت قد صحله إدمان الخمر وأبحه الحنق، ويفزع الناس لجهة الصوت فرادي ومثنى فيرون رجلًا عاري الرأس يضطرب في يد امرأة مسلوبة الشعر والشعور، والرجل يحرص على الانفلات والمرأة تحرص على إمساكه، وقد رنحته لطمًا ولكمًا، وأتحفته بأنواع السباب والشتائم، فلم تبق في اللغة كلمة تشير إلى بذاءة أو لفظة تدل على لعنة إلا رمته بها من ذلك الثغر الأدرد.

ويقف الناس حولهما صفوفًا وهم بين ضاحك وصارخ ومصفق بيديه وكلهم

يتساءلون عن مثار تلك المعركة القائمة، ويبرز من تلك الصفوف رجل طويل القامة، فيجذب المرأة من نطاقها ويصيح بها: انطلقي على أثري وترفع «فانتين» عينيها وترى شخص «جافير»، فيخفت صوتها، وتصفر أحداقها، وتتزايل أعضاؤها، وتمشي خلفه بين الذلة والانكسار، وينهز الشاب تلك النهزة فيختفي وينقضي ذلك المشهد.

سار «جافير» يخترق الصفوف، وعلى أثره «فانتين» وأخذ سمته إلى مخفر الشرطة، فلما بلغه أمر بالباب ففتح، وبالشمعة فأوقدت، وانتزع من جيبه ورقة وأنشأ فيها يسطر، وانزوت «فانتين» في أحد الأركان كالكلبة راعها مروع، ووقف حول المخفر بعض المولعين بحب الاطلاع ممن شهدوا الحادثة، وجعلوا يشرئبون بأعناقهم من وراء النافذة رجاء أن يلموا بجانب الأمر.

وكانت شريعةُ ذلك العهد تقضي بوضع تلك الطبقة من النساء تحت التصرف المطلق لرجال الشرطة، فهم يلعبون بهن ما شاء الهوى ويصادروهن في حرفتهن المنكودة وحريتهن الموهومة!!

فأكب «جافير» على الكتابة وهو أشد ما يكون غيظًا، وما نسي القارئ ما كان من وصف أخلاق ذلك الرجل الذي ما نم قط ظاهره على باطنه ولا وجد التأثر إلى نفسه سبيلًا. ولكنه قد غلبَ في هذه المرّة على أمره فلاحت بوجهه ملامح الانفعال، فأجمع كيده، ومثل أمامه مدى سلطته، ونفث في يراعه سم غيظه، فكان يكتب وحنقه في عنفوان شبابه، وجرم تلك البغي يتجسم أمام عينيه، حتى إذا فرغ من كتابته وتوقيعه نادى بثلاثة من الشرطة، وأمرهم أن يقودوا «فانتين» إلى السجن وقال لها: ستلبثين هناك ستة أشهر.

فارتعدت فرائصها، وهمت بالنهوض فخانها العزم، فترامت تزحف بجسمها على بلاط قد طلته نعال الشرطة بطلاء من الوحل، وجعلت تضرع إليه وتستدر رحمته وتقول: ستة أشهر اللهم غَفْرًا، إنَّ في ذلك لهلاكًا لطفلة ليس لها سواي من عائل فاتق الله في ضعفي وراقبه في حياة تلك الطفلة، ولو أنك ألممت بمبدأ الأمر لتضاءل في عينيك منتهاه، فاصرف نظرك تلقاء ظلامتي، فإن كنتُ قد أجرمتُ بعدها فعليَّ إجرامي، وإني لأستعدي بك على ذلك الشاب الذي وترني على غير معرفة مني به - لمحني أسبهل[1] في الطريق فجعل يتحرش بي وأنا أصابره، حتى إذا أعياه الأمر عمد إلى قبضة من البرد فدسها بين ثوبي وظهري على غفلة مني، فوجدت لذلك ألمًا أخرجني عن حد الرشد، ففعلتُ به ما فعلت وأنا بمنزلة بين الألم والذهول، وما ظنك أيها الحاكم العادل بامرأة مريضة يباغتها مباغت بمثل ذلك الأذى تحت هذا الليل

---

(1) اسبهل أي أقبل وأدبر في الطريق لغير شيء وهو ما يسميه العامة «ضرب بنطة».

في الشتاء؛ أتراها كانت تحلم أم تطيش، فإن كنتُ قد أدركني بعض الطيش فإن ذلك إنما وقع لفرط الألم وضعف التحمل.

ألا شَاهدٌ ممن وقفُوا على الحقيقة يأتي فيظهرُ براءتي، ألا يعودُ ذلك الشاب الذي اختفى فأعتذر إليه من فعلي وإن كان هو البادئ بالإساءة، ألا منقذ لي من هذا السجن الذي سيجر إلى طرد طفلتي من النزل فتموت فوق العراء، فياليت شعري، كيف أغذوها وأنا لا أكسب في السجن نصف ما قرره أصحاب النزل لقوتها؟ فلك الله أيتها الطفلة المنكودة، ولي الله من بائسة نزل بها العسر إلى تلك المنزلة من الحياة، فوالله ما كان هذا الفحش من أمري، ولكن هي الحاجة ترمي بصاحبها إلى مرامي الهلاك، فلا تفرط علينا وكن من الراحمين.

تقول ذلك بصوت خنقه البكاء، وأنفس قطعها الشهيق، كأنها محتضر قد أخذه النزع، وهي عارية العنق مفتولة اليدين، وقد أشرق محياها إشراقًا ظهرت معه في أعالي مجالي الجمال، ولا بدع فإن الآلام إذا بلغتْ مداها انبعث من أثنائها نور سماوي وانبسط على وجوه أصحابها فبدلها تبديلًا.

ولما فرغت من ضراعتها تماسكت حتى أمكنها النهوض، ثم دنت منه فقبلت طرف ردائه، ولو أنها ضرعت كذلك إلى رجل قد قدَّ من حجر الصوان قلبه لذاب لها رأفة، ولكنها قد صادفت رجلًا بلا قلب فهو لا يعطفه التوسل ولا ينال منه التذلل!!

أو تدري أيها القارئ ماذا كان جوابه لها بعد الذي سطرناه تحت نظرك؟ كان جوابه أن قال لها: لقد وعيتُ حديثك فانطلقي إلى السجن، فبه حكمتُ عليك، وقد استحال غير ما حكمت، فلو أن ذلك الديان يتجلى اليوم لفصلَ القضاء لماَ قضى عليك بغير ما قضيت.

قال ذلك ثم ولاها ظهره، فجمدت في مكانها وتحرك الجند وإنهم ليهمون بجرها وما تصل أيديهم إليها إذ وثبَ من جانب المخفر الأيمن رجل ملثم فحسر عن لثامه وصاح بهم: مكانكم أيها الجندُ فمد «جافير» بصره فإذا به يرى «مادلين» فحياهُ تحيةَ الكاره لرؤيته وقال له بصوت الكاظم لغيظه: عفوًا سيدي الشيخ - وما وقعت تلك الكلمة في سمع «فانتين» حتى انتفضت في مكانها فدفعت عنها الجند، وسرت مهرولة إلى «مادلين»، ولما تبينت وجهه صاحت به وهي تغرق في الضحك أهذا هو أنت، ثم بصقت في وجهه، وانقلبت إلى مكانها فمسح «مادلين» وجهه، وقال لجافير: خلِّ أيها المفتش سبيل هذه المرأة.

كل ذلك يجري و«جافير» ينظر وهو متهم لنظره، ويسمع وهو مكذب لسمعه، وقد قرعت نفسه قارعتان ذهبت أولاهما بصوابه وفلَّت الأخرى غرب إرادته، فلبث في

مكانه برهة أعوزه فيها النطق، وافترست طائر حلمه الدهشة والذهول.

نظر امرأة تبصق في وجه شيخ جليل، والمرأة من البغايا والرجل من أولي الأمر، فاتهم للوهلة الأولى نظره، وشهد بعد ذلك الرجل يمسح وجهه وهو أروح ما يكون بالا، ويأمر بإخلاء سبيل تلك المرأة فلم يصدق سمعه.

ولم تكن «فانتين» أقل ذهولاً منه فإنها لم تكد تسمع قولة «مادلين» حتى دلفت إلى الباب، وجعلت تعالج فتحه وتتهيأ للخروج وهي تقول كمن يكلم نفسه: أيسرحونني فلم أسجن؟ ومن ذا الذي يستطيع ذلك؟ ولقد سمعتُ بأذني الأمر بالسجن، ووعيت ما سمعت، فلئن كنت قد طرق سمعي بعده أمر بالإفراج،لقد كذبتني الأذن. اللهم إلا إذا كان «جافير» هو الآمر، أما ذلك الشيخ المريب فليس له من الأمر شيء، وما أدري ما الذي حدا به إلى الحضور، أو ما كفاه طردي من مصنعه وخروجي عن أفق العفة والصيانة وهبوطي إلى تلك المنزلة، ولقد كنت أعمل في مصنعه فأصيب رزقي بين العفة والكفاف، فأبى إلا أن يكون أذنًا للسعاية بي، فأخرجني حين لا موئل ولا وجه للرزق، وحملني بظلمه على ركوب تلك الطريقة، ويعلم الله أني ركبتها وأنا كارهة لركوبها ولكنها سبيل كل مضطر عديم. ولولا ما حمَّلني أصحاب النزُل من الديون واشتطاطهم في طلب النفقة لتلك الطفلة وكساد الحرفة التي أزاولها لتماسكت وإن زعزعني الدهر، وبالغت في تطفيف قوتي الأيام والليالي!

ويسمعُ «مادلين» شكواها فيضربُ بيده إلى جيبه، وينتزع منه كيسه ويجدهُ خاليًا فيرده إلى مكانه ويقول لها: خبريني كم مبلغ ديونك أيتها الفتاة، فتقول له: إليك عني أيها الرجُل، فلست بمحدثة معك ذكرًا، ثم تلتفت إلى «جافير» فتحاسنه في الخطب وتنتفض أمامه من قدر «مادلين»، تشرح له سوء مغبتها إن هو قد أصر على حكمه، وتستنزل عفوه وتعود به من عقابه، وتنتهي بقولها: ولا أحسبك بعد الذي عرفتَ من أمري إلا غافرًا زلتي متجاوزًا عن خطيئتي، ثم تولى إلى الباب وتضع يدها على غلقه.

وتوقظُ تلك الحركة «جافير» فيعودُ إلى نفسه، ويخرج من جمود كان في أثنائه كالصنم نكسه منكس، ويصيح الجند بصوت تمازجه نغمة القادر يا ويلكم، أتفلت هذه الفاجرة من أيديكم وأنتم لا تشعرون، ومن ذا الذي أمركم بتسريحها بعد أن أمرتكم بسجنها؟ ياويلكم ردوها فلتقضين في السجن أيامها رغم المعارضين.

وكان «مادلين» مصغيًا كل الإصغاء لما دار بينهما من الحديث.

فالتفت إلى «جافير» وقال له: اعلم أيها المفتش أني أنا الذي أمرتُ بتسريح هذه المرأة، فلا سبيل لك عليها منذ الساعة، فإني مررت بمكان الحادثة بعد انصرافكم، وتسقطت الخبر، فأخبرني بعض من شهد المبدأ والنهاية أن ذلك الفتى هو البادئ

بالإساءة، ولولا تهاون الشرطة لكان هو الحقيق بموقف هذه الفتاة.

فقال «جافير» وهو يتكلف الكظم لغيظه ويغالب اضطراب نفسه: إن تسريحها ليدخل في باب الاستحالة، فإنها أهانت فتى شريفًا وآذت شيخًا جليلًا، فلئن كانت قد أعذرت في الأولى فما عسى يكون عذرها في الثانية؟

قال «مادلين»: أما عن الأولى فقد صدقتَ الخبر، وأما عن الثانية فإن الأمر لمختص بي والعقاب، فمتعلق بإرادتي فإمَّامَنّا[1] بعد وإما جزاء.

قال جافير: عفوًا يا سيدي إن الأمر لا يقتصر على شخصك ولكنه يتناول العدلَ كله، وبمثل هذا العمل وأشباهه يُنكسُ العدل رأسه، ويُخْترمُ سياج الشريعة.

قال «مادلين»: أعلم أنَّ العدل نوعان: عدلٌ يجري به الوجدان، وعدل تجري به الشريعة، ومن كان صادق الوجدان كان خليقًا بالتوفيق إلى سبيل الحق، ولقد وفقني الله إلى استبطان أمر هذه الفتاة وألهمني الوجدان براءتها فلا يستطرد بك جَوادُ العِناد في سبيل إيذائها فإنك لن تنالها بسوء وأنا من الشاهدين.

قال: إني لأراني غير قادر على فهم ما أسمع وما أرى.

قال: فلتكن قادرًا على الخنوع والتسليم.

قال: إني لأخنع للواجب وهو يدفعني إلى وجوب الإصرار على سجن هذه الفتاة ستة أشهر.

قال: بل يدفعك إلى إخلاء سبيلها فلا تسجن يومًا واحدًا.

قال جافير: أما وقد وقفت بي عند حد اليأس من إقناعك فإني لا أرى بدًّا من الانحراف عن صراط الطاعة. ولا يكبرن عليك أمر مخالفتي إياك، فإني لأمادك حبل المقاومة في شأن هذه البغي، وما وقع لي قبل اليوم أن أقاوم مشيئة الرئيس، ولكنَّ إلمامي بواقعة الحال، وتثبتي من الأمر، ودخول الحادثة في دائرة اختصاص الشرطة التي أنا كبيرها، كل أولئك يدعوني إلى سجن هذه الفتاة. وما كاد ينتهي من قولته حتى تقطب وجه «مادلين» بعد ذلك الانبساط، وهبَّت من شمائله روائح السلطة، فقال له بصوت سبقته إلى مخارجه الخشونة وامتزجت بأجزائه الحدة: لقد أسمعتني أن الحادثة تدخل في دائرة اختصاص الشرطة التي أنت كبيرها، وأسمعك الساعة أن المادة التاسعة وأخواتها الحادية عشر والخامسة عشر والسادسة بعد الستين من قانون العقوبات تقضي بأن أكون القاضي المطلق،

---

(1) إما أن نمنَّ عليها بالتسريح وإما الجزاء.

فبناء على صريح تلك المواد أحكم ببراءة «فانتين» وآمر بتسريحها. وأزيدكَ بي علمًا وأذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون 13 ديسمبر سنة 1799 فهون على نفسك، وابرح هذا المكان فحسبكَ ما سمعتَ.

فاستقبل «جافير» هذه الضربة الأخيرة بصدر رحيب كما يستقبلُ الباسل من الجنود أسنَّة الرّماح، وانحنى حتى كاد يقابل الأرض بوجهه، وخرج وما ينظر ما بين يديه غَمًا، ومرّ «بفانتين» فالتصقت بعضاضة الباب لتخلي له السبيل، ولبثت في مكانها كأنها بعض الأنصاب[1]، وذهلت وحق لها أن تذهل لمنظر تلك المعركة التي قامت بين رجلين: علقت بأذيال الأول نجاتها، وكمن تحت رداء الثاني هلاكها.

(1) التماثيل.

هذا يَصعدُ بها إلى مراقي الهناء، وذاك ينزل بها إلى درك الشقاء، وهي بينهما كالكرة إذا قذف بها الثاني إلى ظلمة اليأس ردها الأول إلى نور الأمل، كان أحدهما ملكًا يكلؤها، وثانيهما شيطانًا يحاول أن يتخبطها بمسّ منه، وقد أنزل الله النصر على الملك فكان من الظاهرين.

وعجيب أن يكون هذا الملكُ هو ذلك الشيخ الذي استرسلت «فانتين» في كراهته وظنته أصل شقائها، وسبب بلائها، على أن ما لبثتْ بعدَ الذي قد رأته من محاسنته لها، وعطفه عليها، وتحريه سرورها بتسريحها، ووقوفه في وجه «جافير» تلك الوقفة التي قطعت على إرادته السبيل أن أخذت تحاسب نفسَها وتقولُ: لي الويل لشدَّ ما كنتُ أنفر من ذلك الرجل وأحملُ له ضَبَّ الضغن، وأعزو إلى فعله سوء ما وصل إليه أمري من الفحش والتبذل، ولقد وترته[1] الساعة وترة يضيق عنها الحلم، فصفح وهو قادر على غير الصفح، ولم يفتر نشاطه عن الذود عني والمناضلة دوني، فلا أحسبني بعد ذلك إلا واهمة في أمره جاهلة مقدار خطره - أو ليس الذي قد غلبَ «جافير» على أمره بقادر على أن يحل بلفظة منه بيني وبين الهناء، فأموت في السجن حزينة وتموت بموتي تلك الطفلة اليتيمة - اللهمَّ إنّ هذا هو الخلق الكريم، وتلك هي النفس الزكية!

كذلك كانت تحاسب نفسها، وحقدها يتحلل في صدرها ووجدانها، يستل من قرارة نفسها ذلك النفوز الذي سكن فيها حتى أصبح النفور ميلًا والبغض حبًّا، وحتى أدركتها الندامة على سالف فعلها وسوء ظنها بذلك الشيخ الجليل، فكاد يأتي على نفسها الخجل والحياء.

ولما بَرحَ «جافير» موقفه الحرج التفت «مادلين» إلى «فانتين» وقال لها وهو يفيض من عبرته ويخفي من حسرته: لقد وعيتُ ما تقولينَ وما كنتُ أعلم شيئًا من أمرك، فما منعك أن تنفضي إلينا جملة حالك يوم أنذروك بالخروج من المصنع، ولو فعلت لأنصفناك، ولكن أبى الله إلا أن يجري القدر بما شاء، فأنت منذ اليوم مكفية المؤونة بي فإني كافلك وجامع بينك وبين طفلتك، ورادك إلى طاعة الله يحافظك على عرْضك وموف ديونَك، وبالغٌ بك أقصى ما تودين من العيش، فلا تبخعي[2] نفسك أسفًا على أثرٍ ماضيكَ، فإن صحَّ ما تقولين ولا أخالك إلا صادقة فيه، فإنك تخشى وجه العفاف ولم تعقي الفضيلة، وما كنت أمام ذلك المطلع على الأفئدة إلاَ طاهرة الذيل عفيفة الإزار.

وما انتهى «مادلين» من قولته حتى تمثل لها مستقبلَ حياتها فرأت جنة يميس

---

(1) رأيته وخبرته.

(2) بخع، قتل نفسه حزنًا.

فيها النعيم، وتجري من تحتها أنهار السعادة، ورأت نفسها في وسط تلك الجنة تتبوأ مقاعد العفاف، وتتكئ على أرائك الصيانة وبجانبها طفلتها الوحيدة.

وتزاحمت على نفسها جيوش الأماني فخرج بها السرور عن حد الإدراك وترامت على يد «مادلين» تقبلها، ثم غابت عن الوجود فأمر بها «مادلين»، فحملت إلى دار المرضى التي أقامها بجوار داره فأنيمت فيه وأوصى بالعناية بها وانصرف إلى عمله.

وكانت الحُمى تتمشى في عظم تلك المغبونة في نفسها، فمرّ بها قطع من الليل، وهي تهذي وتصيح، ثم أخذها النومُ فنامت حتى أظهر[1] النهار أو كاد، وشعرت عند يقظتها كأنها تسمع بجانب سريرها ترديد أنفاس، فكشفت جانب الستار فإذا هي ترى «مادلين» باسطًا ذراعيه شاخصًا ببصره كالراهب المتبتل يضرع إلى شيء فوق رأسها، فأرسلت بصرها حيث يرسل بصره، فعلمت أنه يضرع إلى صليب[2] كان معلقاً بأعلى الحائط، فأكبرت رؤيته وظهر لها في هذا الموقف كأنه هيكل من النور عليه حلة من التُّقَى، فكرهتْ أن تقطع عليه صلاته، وأمسكت برهة ثم قالت له بصوت يكاد يخفيه الحياء: ما الذي يصنع سيدي هناك؟ فأجابها وهو يومئ إلى الصليب، جئت أصلي لذلك الشهيد في السماء، ولو أنصف لقال لتلك الشهيدة في الأرض!! وكان «مادلين» منذ الليلة الغابرة لا ينفك عن تعهدها والسؤال عنها، فما يستقرُّ في حجرته إلا ريثما يعودُ لتنسم أخبارها، فباتَ بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها، ولا ينصرم عمرها، وانتابته الهواجس فما احتواه مضجع ولا التقى له جفن بجفن.

وننتقل بالقارئ من حجرة «مادلين» إلى حجرة «جافير»، فيرى رجلًا قد أقامه الحقد وأقعده الحرد يكاد ينشق غيظًا، ويقطر غضبًا على أثر تلك الضربة التي تلقاها بصدره الرحيب في مخفر الشرطة - ويراه، وهو ينفث نفثة المصدور، ويتململ تململ الموتور، وقد أمسك يراعًا[3] وأنشأ يسطر كلما أملت عليه الموجدة وأوحى إليه الضغن.

وفي صباح تلك الليلة بكر «جافير» إلى صندوق البريد فوضع فيه بيده ذلك الكتاب الذي سطره بحجرته وعنون غلافه إلى كبير الشرطة بباريس-وما قرأ هذا العنوان قارئ، وكان ممن يعرفون جافير وكتابته إلا تنبأ أن الكتاب لا يشمل على غير التماس الإقالة على أثر حادثة الأمس.

ولما استثار «مادلين» دفائن «فانتين» وعلم بحقيقة أمرها، وألم بأطراف تلك

---

(1) أظهر النهار إذا كان وقت الظهيرة.

(2) في عقيدتنا - نحن المسلمين- أن المسيح عَبْدٌ وأنه لم يُصلب،وأن الدعاء لا يكون إلا بالله.

(3) يراعًا : قلمًا.

المؤامرة التي كانت سببًا في خروجها من المصنع، ونزولها إلى تلك المنزلة من الحياة سارع بإرسال كتاب إلى أصحاب النزل يطلب فيه إشخاص «كوزيت»، ووجهه إليهم بقدر من المال يبلغ مثلي ما كانوا يطالبونه وأنذرهم بمرض الوالدة ولزوم المسارعة بإحضار الولد.

وسقط هذا الكتاب على صاحب النزل سقوط الندى فقال لزوجه وهو يتهلل فرحًا: لقد در ضَرع تلك البقرة العجفاء «يعني فانتين»، أكبر ظني أنها ترتع اليوم في ربيع عشق جديد، فمن العجز تسريح هذه الفرصة، وما لنا لا نمسك الطفلة حتى نحتلب رسل ذلك الضرع، وهذا كتاب عاشقها الجديد ينطق عن ولع ويخبرعن كرم، وإني لأتنسم منه ريح الاضطرار، وأرى بين سطوره جداول يجري فيها الكسب وتسيل السعادة، فاحرصي منذ اليوم على تلك القنبرة، واحذري أن تطير، فإن في إمساكها إطلاقًا لأرزاقنا، ثم قام إلى دفتر فزوّر فيه كل ما زعم أنه أنفقه على «كوزيت» من أجل الطبيب وثمن الدواء، وما زال يرصد الخبيث من أرقام الحساب ما يملي عليه الطمع حتى نيف مجموع ما سطر على مبلغ ما أرسل «مادلين».

وفي اليوم التالي وجه «مادلين» إلى أصحاب النُّزل بمبلغ آخر، وطلب إليهم المسارعة بإرسال الولد فقال الرجل لزوجه: ألم أنبئك بما سيكون من أمرهم إذا نحن أحسنّا حفظ هذا الكنز الثمين؟ فانظري كيف لم يجد له عزمًا على الانتظار فثنى بإرسال النقود قبل أن نجيبه على كتابه فلنمسكن الطفلة حتى حين؟!

وكانت «فانتين» لا تزال على فراش المرض ينطفي سراجُ حياتها شيئًا فشيئًا، ويدنو منها الموت يومًا فيومًا، وقد أثارت تلك القبضة من البرد دفين دائها القديم، ففتك السعال بصدرها فتكا كاد يهدم جدرانه، ولولا تعلقها برؤية طفلتها للقيت ربها منذ حين. وما خفي على الطبيب أمرها، فإنه أنذر «مادلين» بقرب أجلها وقال له: إني أراها هامةَ اليوم أو غد، فإن كان لها ولد فلا تحولوا بينهما، وعجلوا باستدعائه إن كان من الغائبين، فإنكم لا تفرغون من ذلك حتى تفرغ نفسها.

فجزع «مادلين» جزعًا شديدًا وأشفق أن تموت الوالدة قبل أن ترى الولد، فقام لساعته إلى ورقة وكتب فيهاإلى أصحاب النزل عن لسان «فانتين» يقول:

إذا أتاكم رسُولي حامل هذا فادفعُوا إليه «كوزيت» وهو يدفع لكم تلك الديون التي تزعمون مطالبتي بها.

وارتأى أن يكون هو الرسول إلى أصحاب النزل، فوضَع الكتاب في جيبهِ وصحَّتْ عزيمتُه على السفر، فبكر من غدهِ إلى دار حكمه.

وجلس لإنجازِ شغله، وأراد أنْ لا يتركَ وراءه من خدمة الحكومة ما يشغله عن

خدمة «فانتين»، فتسلف الأعمال، وأنجز في يومه ما يطالبه به الغد. وإنه ليتصفح الأوراق وينظر في الشؤون إذ جرت جوار بالنحوس، وعدت عواد بالشرور، ووقع في حساب القدر ما لم يقع في حساب «مادلين»، فقيل له: إن «جافير» بالباب يطلب الإذن بالدخول، فوالله ما لفظ أمامه هذا الاسم حتى مرتْ به خلجة من الشك تمازجها نزوة من الألم، فتطيَّر وتضعضعت حاله، وكاد يعجز عن المداراة، ولكنه رد النفس على مكروهها فاستقرت، وأذن لجافير بالدخول، وكان إذْ ذاكَ جالسًا بقرب المدفأة ينظر في أوراق محاضر المخالفات ويعلق عليها ما شاء تعليقه.

ودخل «جافير»، فوقف وسلم سلام الخاشع المستكين، ولبث واقفًا وراء ظهر «مادلين» صامت اللسان ساكن الشخص ينتظر الإذن بالكلام، كل ذلك و«مادلين» لم يرفع بصره ولم يحرك جسمه كأنه لا يشعر بوجود ذلك الواقف.

ولو أن أحدَ أولئكَ الذين أوتوا علْمَ السحنة يأتي الساعة وينظر إلى «جافير» وهو راسخ في مكانه وكان يكون من المخالطين له والواقفين على أسرار طبائعه والعالمين بتقلبات هذا المخلوق الذي بينا نراه في لباس الجندي المحارب إذا هو في ثياب الزاهد الراهب لزكن عند رؤيته وتفرس في مخائل سحنته أن هذا الجاسوس الصادق والناقل الأمين قد نزل به نازل وحالت بينه وبين نفسه حوائل، وقال لأمرٍ ما وقف عدو «مادلين» أمامه وقفة المستسلم المستكين، وعهدي به يتحين له الفرصة ويتمنى له الغصة! وفي الواقع فقد كانت سحنة «جافير» تنم عما في ضميره، فما مرَّ بخلجان قلبه شيء ولا سرى بقرارة نفسه وسواس إلا شفّت عنه سحنته كما يشف الزجاج عن الماء.

قلنا: إنه دخل على «مادلين» فسلم منحنيًا، ووقف متحشمًا، وما زال واقفًا خلفه موقف الجندي في صفوف النظام، لا تنبعث له جارحة، ولا تطرف عين، وقد فارقت محاجره تلك النفرة، وانجابت عنه ظلمة الشك، فامتزج بأشعة بصره نور الإخلاص، وجال في محياه ماء الخشوع، ونطقت ملامح وجهه عن صبر لم تشُبْه مرارة، وسكون لم تعرُهُ كلفة، حتى التفت إليه «مادلين»، فرأى رجلًا تبدو عليه سيما الانكسار، وتقرأ في عينيه آية الحزم قد احتشم احتشام الجندي أمام القائد، والمجرم بين يدي القاضي فقال له: ما خطبك أيها المفتش؟

فبهت «جافير» برهة وهو صامت كأنه يدعو إليه حصاته، ثم اندفع قائلًا بصوت تسمع فيه رنة من الحزن تشوبها عزة من الشمم:

جئت أنهي إلى سيدي خبر جريمة قد وقعت منذ اليوم.

قال مادلين: وما عسى تكون تلك الجريمة؟

قال: إن أحد عمال الحكومة الأدنياء، قد رمى بعض سراة القضاة في شرفه، وطعن عليه في سمعته، فدفعني الواجب إلى رفع الأمر إليك: قال أتعلم من هما؟

قال: ما أعلمني بهما، أما المقترف فأنا، وأما المقترف عليه فأنت، وما وقع في سمع مادلين الخبر، حتى وقع في نفسه شيء من الضجر.

فتململ في مكانه واندفع «جافير» في حديثه فقال:

إني لأطلب إليك رفع أمري إلى الحكومة لأنال من عقابها ما يكفر عن خطيئتي، ولا تعجبن لعدم التماس الإقالة، فإنني إن فعلتُ ذلك خرجت خروجًا لا يلحقني معه العار، ولكنني خليق بأن أنزل منزلة المجرم الأثيم فأخرج ملومًا مدحورًا، ولقد كنتَ معي بالأمس غائب اللين حاضر الجفاء وأنت من الحق أعزل فلتكنه معي اليوم وأنت شاكي سلاح الحق ثاو بحصن الفضيلة.

قال «مادلين»: لقد جعلتني بحيث أرى أنك أتيت عظيمًا وارتكبت جسيمًا ولا أذكر بيني وبينك أمرًا يدعوك إلى قول ما أسمع منذ اليوم، ولقد أطلت في اتهامك لنفسك وبالغت في وصف إجرامك فما عسى تكون تلك الفعلة التي تزعم أنك فعلتها؟

قال جافير: رميتك في شرفك وخدشت وجه سمعتك، فالتمست منْ كبير الشرطة بباريس إمساكك وسجنك وذكرتُ له في شقة رفعتها إليه أنك مجرم قديم، وأنك ضالة الشرطة التي ننشدها منذ حين، ولقد كتبت ما كتبت وقسطي ممتلئ من المرة الصفراء، وغضبي يفور فوران المرجل على أثر حادثة تلك البغي التي غلبتني عليها، ووقفت دونها تلك الوقفة التي قطعت على إرادتي السبيل.

ويرجف قلب «مادلين» عند سماع قوله «مجرم قديم»، ولكنه يتماسك واستطردَ «جافير» في حديثه فقال: وما حملني على اتهامك أيها الشيخ إلا آيات شهدتها وعلامات تحققتها - رأيتك شديد العضل قوي الساعد سديد الرماية إذا رميت، ولمحت بإحدى فخذيك فدعًا وقد تبينت منك الأولى يوم العجلة وما نسيت ما كان من دخولك تحته وإنقاذك حياة ذلك الشيخ الفاني، وتحققت الثانية بتتبع آثارك وتسقط أخبارك، وشهدت الثالثة في مشيتك فألقي في روعي أنك «جان فالجان».

وتسقط شعبة من مهجة «مادلين» لذكر ذلك الاسم، ويندر من أنامله اليراع الذي كان يمسكه فيقول وهو يغالب اضطرابه: ومن هو ذلك الرجل؟ فيجيبه جافير: هو أحد أولئك الشطار الذين يعيثون في الأرض، ولقد رأيته منذ عشرين حولاً في سجن تولون، وهو أشبه الناس بك، ثم زعموا أنه بعد انصرام أيام سجنه عالج السرقة في بيت أحد العباد، وجنى في الطريق على غلام صغير، فاغتصب منه ما أدري أي شيء، ثم إنه اختفى بعد ذلك فجدَّت الشرطة في طلبه، وجَدَّ في اختفائه، حتى

إذا شجر بيني وبينك الخصام في أمر «فانتين» وخرجت من موقفي أمامك بذلك الخذلان حملني الغيظ منك على أخذك بهذا الرجل، ومثّل لي الحنق أنك «جان فالجان»، وكانت تلك الآيات التي ذكرتها لك من أكبر البواعث على اتهامك، فلا تكن معي من الراحمين.

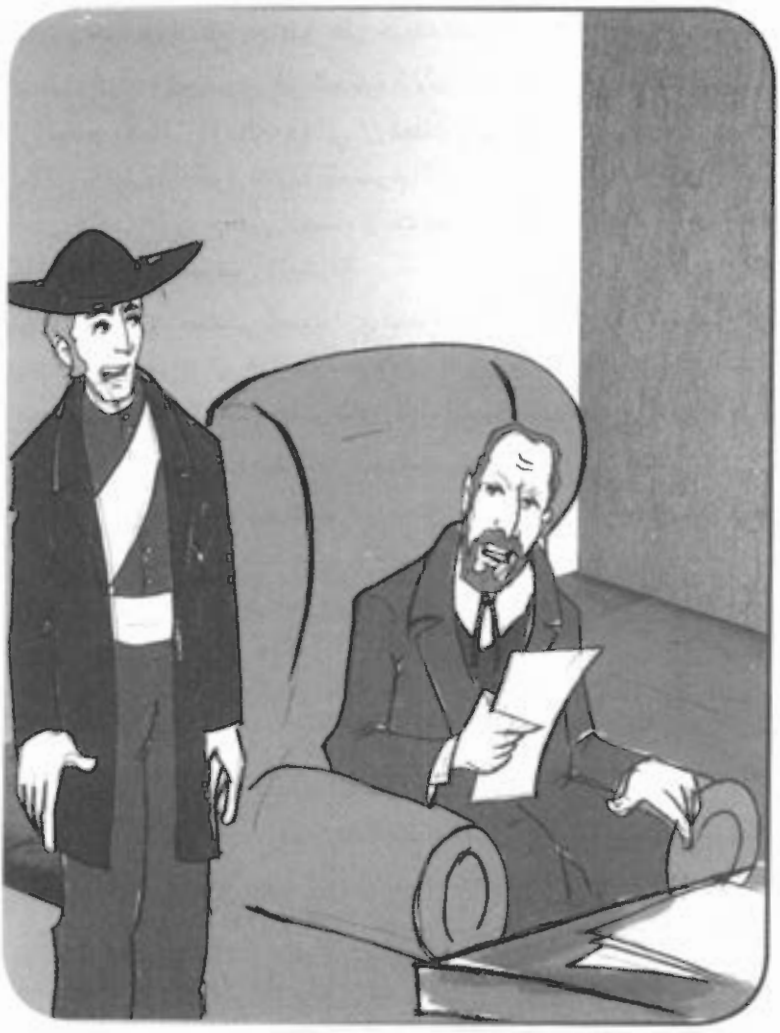

قال «مادلين» وهو يبتسم ابتسامة- الله أعلم بما يكمن في أثنائها من المضض - وماذا كان جوابهم على كتابك؟

قال: كان من جوابهم على كتابي أن رمزني بالنزق والجنون وحسبوني محمقًا، ولقد أصابوا في رأيهم كما أصبت عن الخطأ في رأيي فيك.

قال: لقد أحسنوا في جوابهم وأحسنت في رجوعك عن وساوسك. قال: وأعجب من ذلك أن الشرطة قد أمسكت طريدها وعثرت على ضالتها، ووقع «جان فالجان» في قبضة الحكومة وهو اليوم بالسجن ينتظر حلول العقاب.

فأخذت «مادلين» الأرض[1]، وصاح من فرط ما به وما يريد أن يصيح وكيف كان ذلك؟

قال: قبضوا عليه، وقد ظهر حائطًا بإحدى الحدائق، واقتضب فرعًا من التفاح، فسيق إلى المخفر والفرع لا يزال في يده، ثم أودعوه سجن الاحتياط، وكادت تختفي حاله، وتدخل جريمته تلك في غير باب العقاب التأديبي لولا أن أراد الله سوء العاقبة.

فاتفق أن سجّن الاحتياط هذا كان عتيق البناء يريدُ أن ينقض على من فيه فأمر قاضي التحقيق بتحويل أهلَه إلى السجن العام، وكان بذلك السجن رجل من أهل التشطر الذين شبوا وشابوا في أعماق السجون قد أكل سجن تولون شطرًا من عمره وأوشك هذا السجن أن يأكل شطره الثاني - شهدوا منه في آخر أيامه شيئًا من الاستقامة وحسن السيرة، فأقاموه سجانًا ولما جيء بأهل سجن الاحتياط ولمح بينهم سارق العود صاح به ألا ترى أني أعرفك أيها الرجل ألست «جان فالجان» رفيقي بالأمس في سجن تولون.

فقال الرجل: اتق الله يا أخي فما أنا بصاحبك الذي ذكرت وإنما أنا «شاماتيو».

ثم ظهرت عليه الحيرة وعراه الدهش وتظاهر بالبله والجمود «وقد يحسن أمثال هؤلاء أنواع المكر والخداع»، فبعث كلام السجان الشك في نفوس الشرطة ففحصوا عن أمره ورجعوا لوح أعماله فاهتدوا إلى معرفة الأرض التي نبت فيها والحرفة التي كان يزاولها، فإذا هو مشذب للشجر قد اختفى أثره وانقرضت أسرته وكان آخر عهد الناس به في قرية «فافيرول»، وأجهدت الشرطة نفسها في الوقوف على أثر تلك الأسرة فلم تفلح، فعمدوا إلى البحث عن من كان معه في السجن بذلك العهد فعثروا على اثنين ممن حكم عليهم بالخلود في السجن، فأشخصاهما إلى حيث يوجد، فلم يلبثا أن عرفاه كما عرفه ذلك السجان.

وصادفت الشقة التي رفعتها بشأنك فراعهم من هذا الأمر فكتبوا إليَّ ما كتبوا، ورموني بالنزق والتسرع، فكبر عليَّ الأمر وقلت في نفسي: لعلهم خُدعُوا في أمر هذا الرجل، فتالله لأذهبن لأراه رأي العين، فرغت روغة فإذا أنا هناكَ، فنظرت «جان فالجان» ورأيت نفس الرجل الذي شهدته في سجن تولون منذ عشرين حولًا، ولم يعد عندي مجال للشك ولا مسرب للوسواس، وعلمت أني جنيت عليك جناية يضيق عنها

(1) الأرض هي الرعدة.

العفو، فلو أنني كنت موفقًا في العمل وكنتَ أنت مكان ذلك الرجل لسجل عليك الخلود في السجن، وإنك لتعلم كيف يكون عقاب العائد إلى الجريمة سيما أن كان من أولئك المراقبين.

قال «مادلين» وهو يتعلل بالتشاغل بالنظر في بعض الأوراق ويقهر نفسه على التجلد والثبات: ما لنا ولهذا الحديث فإن بنا من الاشتغال بشؤوننا ما لا نفرغ معه إلى الاشتغال بأمر الغير - اذهب يا جافير إلى فلانة التي تبيع الخضر بزاوية المكان الفلاني ومرها أن ترفع ظلامتها إلينا، ثم أمره بأوامر أخر فقال «جافير»: ودَدْتُ لو كانت لي في الوقت فسحة فأقوم بإمضاء أمرك فإني على عزم الرحيل في هذا المساء لأشهد غدًا مع المشاهدين، فإن غدًا ليوم سيكون له ما بعده يبرم فيه أمر «جان فالجان»، ويعلو الحق على الباطل وتفلت الناس من شر ذلك الشيطان الرجيم.

فاسود في عين «مادلين» ما بينه وبين «جافير» وقال وهو يتكلف السكينة: أفي غد يخاصمون هذا الرجل، قال: نعم - قال: وكم يمتد أجل ذلك الخصام؟ قال: يوم أو بعض يوم قال: حسبك، ثم أذن له بالخروج فلبث «جافير» في مكانه، وقال: إني لأطلب إليك الاقتصاص مني.

فرفع «مادلين» رأسه وقال: إني أرى فيك حصافة وأرى ذلك عقلًا، ومن كان مثلك كان حقيقًا بالتكريم، وكان سبيله أن يُعَانَ على أمره وأن يؤخذ بيده في زلته، فلقد عنّ لنا أن نقرك في وظيفتك ورأينا الأمر أيسر مما في نفسك فدع عنك هذا الإغراق في الطلب واستغفر لذنبك إن كنت من الخاطئين. فرفع إليه «جافير» طرفًا قد جال في إنسانه الإخلاص ونطق عما يكمن في نفسه من الوجدان.

وقال بصوت قد استمد السكون من جأشه واستعار الرقة من شعوره: إنني لمجرم حقيق أن يؤخذ بجريرته فلا أرى فيّ موضعًا للسماح.

قال مادلين: إن كنت قد أجرمت فما وقع إجرامك على غيري، وما كان لأحد أن يخاصمك، وأنا من الصافحين.

قال: عجبتُ لمثلك كيف يصفح عن مثلي وقد حاولت الإيقاع بك، وعملت على كيدك وسلب نعمتك، فخنت فيك الاستقامة، وعققت الفضيلة، وأحفظت العدل، ولو أني فعلت ذلك عن غير رغبة في الانتقام لوجدت لنفسي السبيل إلى جميل العذر وقلت: إني شرطي، وللشرطي أن يشتبه ولا تثريب عليه إذا أخطأه التوفيق، ولكني فعلته متعمدًا، ورميتك متقصدًا، وأني أشهد أنني كنت داني القسوة نائي الرحمة لا أعرف التجاوز عن الخطيئة ولا أعرض عن تلبيب كل من انحرف قيد أنملة عن صراط الشريعة فكيف أرضى اليوم لنفسي ما كنت أأباه بالأمس على غيرها ونفسي كما تعلم

أكثر النفوس حرمة عليّ وأولاهن مني بحسن المناصحة، أرأيتك كيف يجمل بي أن أنصب بدني في سبيل إصلاح الغير وأنام عن تقويم ما أراه بنفسي من الاعوجاج إني إذن لمن الظالمين؟! على أني لا أريد أن يخرج بك كرم طباعك عن سبيل السداد فأنتصر منك بك كما انتصرت بك تلك البغي من ذلك الشاب، ولا نلبث على هذا القياس أن تشتبه علينا الأمور فيختلط السيد بالمسود والعبد بالمعبود فكن ما شئت رءوفًا بالعباد واجمع إلى تلك الرأفة صحبة العدل فإن في ذلك ردعًا للنفوس وعزًا للشريعة وخذني بإقراري ولا تطمع مجرمًا في غير العقاب فلكم كنت أقول لنفسي وهي تجد في طلب الظالمين: جدي أيتها النفس فوالذي أنت بيده لئن انحرفت شعرة عن سواء السبيل لأكونن بك أول الموقعين.

قال مادلين: وقد فعلت به تلك الكلمات فعلها سننظر في أمرك ثم مدّ إليه يده للسلام فتقهقر «جافير» وهو يقول عزيز علي أن تصافح يدك الكريمة تلك اليد الأثيمة، ثم ركع أمامه خاشعًا واستقبل الباب، ولما بلغه انفتل إليه ثانيًا وقال: سأقوم بشؤون وظيفتي حتى يأتي الخلف، ثم ولى وجهه وغادر «مادلين» في مكانه يلقي بسمعه إلى وقع تلك الخطوات المطمئنة.

***

لم تكن تلك الحوادث التي نسطرها للقارئ الكريم بواضحة الأثر في القرية التي وقعت فيها، ولكن بعض ما علق بالأذهان من حدوثها قد ترك لها شبه الذكر بالنفوس.

فلو أننا أغفلنا ذكرها لخرج الكتاب وفيه من الفراغ ما نلام معه على الإتيان بما يسده، فها نحن أولاء نذكر ما وصل إلى علمنا من خبر ذلك الأثر وإن كان فيه بعض ما لا يحتمل الوقوع، ولكننا نثبته هنا إرادة الوصول إلى الحقيقة.

ذهب «مادلين» في عصر اليوم الذي وقع له في صباحه مع «جافير» ما وقع إلى «فانتين» يعودها وكان من عادته أن يغشاها في حجرتها فوقف في هذه المرة وسأل عنها قبل الدخول ممن كانت تمرضها. وكان ببابها اثنتان من الممرضات الراهبات تدعى إحداهما «بربيتي» والأخرى «سمبليس»، وكانت الأولى من سكان الأطراف بالريف ثم أصبحت راهبة لا لرغبة في الزهد أو نزوع إلى خدمة الدين ولكن لمجرد الاحتراف بما تصيب منه الرزق فدخلت في بيت الله دخول الخادم في بيت المخدوم واحترفت بذلك كما تحترف سواها من النساء بحرفة الطبخ ولم يدعها الوجود في الدير إلى فوق ما كانت عليه من الخشونة والتقشف بطبعها شأن سكان الأطراف الذين لا يعرفون الترف ولا يميلون إلى النعيم، ومن قابل بين حال الراهب وعيش الفقير وجد بين تقشف الأول وخشونة الثاني نسبًا قريبًا وصلة غير مقطوعة، فلو

شاء الناسك أن يصبح راعيًا وأراد الراعي أن يمسي ناسكًا لوجد كلاهما إلى قصده سبيلًا ممهدًا وما هو إلا أن يدخل أحدهما في ثوب صاحبه.

وكانت تلك الراهبة شديدة القبض على دينها ذات لون يضرب إلى الحمرة، وإقدام في الأمور، وصلاح في العمل، دائمة التسبيح، كثيرة الترتيل، وحشية اللهجة وكان بأخلاقها بعض العهدة، فهي جافية الطبع تغلظ القول للمريض وتمزج له الأدوية بتلاوة الأوراد والأدعية وتدعو للمحتضر دعاء يمتزج به الغضب كأنها تستعجله قبل حينه بما يرجمه فوها من ذلك الدعاء.

أما الثانية: فكانت ذات لون يغلب عليه البياض، فهي بجانب أختها كالشمعة بجانب الذبالة، ولقد وفق «فانسان دي بول» إلى وصف الراهبات في تلك الكلمة التي جمعت بين عزة الحرية وذلة العبودية فقال: «التواضع قناعهن، وخوف الله شعارهن، والطاعة حرزهن، قد اتخذن البيع للتهجد، ودور المرضى للتعبد، وللمخارف الطرقات، والمريضات الحجرات» ذكرنا تلك الكلمة الجامعة في سياق الحديث عند ذكر «سمبليس» ونزيد عليها فنقول: يقف الناظر إلى تلك العذراء موقف الذاهل إذا سأله عن عمرها سائل فقد كتم وجهها سر ماضيها، ولم يشأ أن ينم على آيتها فلم تنطق ملامحه عن أثر لزوال الشباب ولا عن أثر لقدوم الهرم، وهي قليلة الاكتراث كثيرة الأناة، قد جمعت في طباعها بين اللين والجفاء فإنها لتلين حتى يكاد يعقدها العاقد وتشتد حتى يخافها المعاند، كثيرة الصمت قليلة تزويق الكلام، وتكره الفضول في الحديث فلا تنطق إلا بمقدار، وتحب الصدق حبًّا بغض إليها الكذب في الجد والمزاح».

تلك هي صفات «سمبليس» وما كتبنا غير ما أملاه علينا لسان فضلها، وقد اشتهرت بذلك في عالم الدين حتى ضرب أحد الرؤساء بصدقها المثل في كتاب بعث به إلى رفيق له فقال: إنه ليجري على لسان أكثرنا تقى وأبعدنا عن المظنة شيء من الكذب فيحمل منه ذلك على سبق اللسان بما لم يجر به الوجدان، ولا يدخل من باب الإمكان أن تسقط من «سمبليس» سقطة من هذا النوع فتكذب في شيء كائنًا ما كان، فإنها تعتقد أن الذي يمين في الصغيرة لا يلبث أن يستطرد به جواد المين في الكبيرة، وتزعم أن الكذب من أسماء الشيطان فهو عندها أحد اثنين إما إبليس وإما الكذب.

فلعل ذلك البياض الذي نراه بوجهها هو أثر ما أودعه الله من النور في سريرتها، سريرة لو تمثلت لك أيها القارئ لرأيت لوحًا من البلور لا يعلق به الذر ولا يقف عليه الغبار. تلك هي الراهبة التي كانت تمرض «فانتين» وتبالغ في محاسنتها وهي التي أوصاها «مادلين» بالعناية بها وسألها عنها قبل الدخول في هذه المرة.

ولما غادرها ودخل على «فانتين» وجدها ترتقب رؤيته ارتقاب المقرورشروق الشمس، فقالت حين لمحته وهي تغالب كيد الحمى ويغالبها أين «كوزيت»؟

فقال وهو يبتسم: إنها قادمة على الأثر، ثم جلس عندها يلاطفها حتى استوفى عمر الساعة، وكانت لا تلوح بوجهه وهو يحادثها سيما الارتياح لما وقع في نفسه من كلام الطبيب الذي كان ينذره بقرب حينها.

ولما قضى لبانته من النظر إليها انكفأ إلى حجرته فتناول مرسمة وخط بها في ورقة بعض الأرقام ثم خرج وأخذ سمته إلى دار رجل يكري الخيل والعجلات ففشيه في منزله وطلب إليه أن يكريه جوادًا أصيلاً.

- فقال الرجل: وما تصنع به؟

قال أطوي عليه عشرين فرسخًا.

- قال: إنها لشقة طويلة فلعلك تبتغيه مشدودًا في عجلة.

- قال: نعم.

- قال: وكم يكون ثواؤك بعد الوصول؟

- قال: ربما تجشمت السفر في اليوم التالي.

- قال: لتطوي في الجيئة ما طويت في الذهوب.

- قال: نعم.

- قال: إن عندي جوادًا كهمك أيها السيد وهو الأبلق الصغير، وقد كان صعب الشكيمة لا يستقر فوق منكبيه راكب ولا يدانيه إنسان، فما زلت به حتى رضت جماجه، وأسلست قياده، فهو اليوم يسابق الأفكار إلى المقاصد ولكنه يرغب عن السرج وينزع إلى الجر فمن شاء أن ينتفع به فليرغب عن ظهره إلى جزه.

- قال مادلين: أتراه يحسن العدو ويطيل الشوط.

- قال: إنه لينهب المسافة التي تريد قطعها نهبًا، ويطويها خببًا، ولا يجد لذلك تعبًا، على شريطة أن تنفس عنه في أثناء ذلك بعض التنفيس، وأن يكون معك من يشارفه عند أخذ علوفته ليرد عنه غارة أولئك الخدام بالنزلات، وأن لا تحمل معك في العجلة شيئًا ثقيلاً.

دع رفق القائد الذي يقوده، وعنايتكَ بالإشراف عليه، وأما أجره في اليوم فلا ينقص عن ثلاثين فرنكا وذلك سواء في السفر والإقامة.

قال «مادلين» قبلنا شرائطك فابعث بهما غدًا عند تنفس الصباح، ثم ألقى إليه ثلاث قطع من الذهب.

وقال: هاك أجرهما ليومين، وخرج من عنده، ولكنه ما لبث أن عقب إليه وسأله قائلاً:

كم تقدر ثمن العجلة والجواد إذا ساومك فيهما مساوم؟

قال: أتنوي ابتياعهما؟

قال: بل أريد أن أقف على مبلغ الثمن خشية الطوارق في الطريق.

قال: أربعًا وعشرين قطعة من الذهب.

قال: هاكها، ثم خرج ولم يعقب، ولبث صاحب الجواد في مكانه يحز الودج أسفًا على ما فاته من طلب المضاعفة في الثمن، وجعل يقول: ليتني قد طلبت إليه أكثر من ذلك القدر فإني لأجد منه ريح الاضطرار ولكنها فرصة عرضت فسرحتها عني بوادر العجلة.

وذهب «مادلين» إلى مخدعه فلبث فيه بعض ساعة ثم أخذ مضجعه ونام، وشباب الظلماء في عنفوان، وكان له صراف يقطن في حجرة بأسفل مخدعه فلما انتصف الليل أو كاد شعر هذا الصراف بحركة فوق رأسه قد قطعت عليه نومه فاستيقظ وجعل يتسمع فسرى إليه صوت وقع لأقدام تقبل وتدبر في الحجرة التي فوقه، فتبينها فإذا هي أقدام سيده وما وقع له قبل الليلة أن يسمع في حجرة مادلين حركة قبل الصباح فعجب لوقوع

ذلك في مثل هذه الساعة من الليل وقال لعلها لأرق نزل به وزاد في عجبه أن سمع صريرًا بأدراج الدولاب فاستوى في سريره قاعدًا وطرد عن عينيه ما علق بهما من كسل النعاس.

ونظر من النافذة فلمح على الجدار الذي يقابله انعكاس أشعة فترسمها بالنظر فإذا هي مرسلة من طاق الحجرة التي لسيده، فأدمن إليها النظر، فألفاها حمراء تضطرب على الجدار اضطرابًا كأنما كان مصدر انبعاثها نارًا تشب لا سراجًا يضيء.

وكانت لا تلوح بها صورة، ولا يتراءى فيها خيال، فعلم أن زجاج النافذة التي باتت تنبعث منها كان مرفوعًا، ولما تحقق ذلك أهوى برأسه إلى الوسادة وجعل يعالج النوم من جديد.

فاستغرق هزيعًا من الليل ثم تنبه فإذا هو يسمع وقع تلك الأقدام المطمئنة ويرى تلك الأشعة ولكنها قد عرتها الصفرة وعراها السكون فأيقن في هذه المرة أنها لم تكن منعكسة عن غير ضوء السراج.

وإليك أيها القارئ ما وقعَ منذ الليلة في حجرة «مادلين» وما لنا لا نقول في حجرة (جان فالجان)، وما غاب عنك أننا لا نعني بهذين العلمين إلا مسمى واحدًا.

كلمة في سريرة الإنسان

نظرنا قبل اليوم نظرة في مرآة تلك السريرة، ثم صورنا للبصر ما لمحته عين البصيرة، وها نحن أولاء ننظر فيها النظرة الثانية وإن كان من وراء ذلك هزة للنفس ورجفة للفؤاد.

يقف أحدكم على شاطئ البحر المحيط فتكبره عينه وتعظمه نفسه، فإذا انتقل بنظره إلى السماء أصغرت عينه البحر، وأكبرت نفسه السماء، وإنه ليتضاءل في عينه المشهدان، ويصغر في نفسه الكونان إذا ما نظر بعين الوجدان في مرآة سريرة الإنسان - فإنك لا تجد مشهدًا يحرك النفوس وتقف دونه مدارك الأفهام كذلك المشهد-فهو إذا أضاء ذهب سناؤه بالبصر، وإذا أدجى أعيت ظلمته الفكر، وقلَّ أن تستقر فيه عين البصيرة على شيء تلمّ بكنهه أو تخترق حجاب سره لامتداد أمده وفرط غموضه. فلو أنك حاولتَ وصفًا لأدنى سرائر البشر، وعمدت في ذلك إلى قرض الشعر والاستعانة بالخيال، لأعوزك الوصف وأعجزك الوصول، اللهم إلا إذا نزعت إلى جمع ما قيل من القصائد والأناشيد منذ خط القلم إلى أوان العدم وأذبت الجميع في بوتقة الفكر، ثم استللت منها سبيكة شعرية يتناول حسنها ما وراء النفوس ويجلو رونقها صدأ الخواطر.

فالسريرة هي ميدان الشهوات، ومهبط المخزيات، بل قارورة الغرور وتنور الأحلام، وموطن المطامع، ومسرَح الأباطيل، ألا ترى أنك لو ظفرت بأحدنا وقد لاحت عليه سيما التفكير والانشغال، ثم نظرت في صورته وكنت مما يكشف لهم الغطاء عما يجول في قرارة النفس وخلجان الفؤاد، أما كنت ترى تحت ذلك السكون العميق حربًا قائمة وخيالات مشتبكة، نعم إنه ليتمثل لعينك في ضمير هذا الفؤاد، ويتراءى لك بين دفتي ذلك الحيزوم ما سطره «هومير»، وذكره «ميلتون» وتوهمه «دانتي»، ولقد طال بنا الوقوف أيها القارئ على باب ذلك المشهد العظيم، ونحن نتهيب طرْقَه ونكبرُ الدخول فيه، ولكنا سنشدّ منا، ونقدم على فتحه، وموعدنا الجزء الثاني إن شاء الله تعالى.